البحـــث الـثانــي

مآلات الأوقاف المندثرة وأسباب اندثارها

قراءة تحليلية في كتاب خطط الشام
لمؤلفه مُحَمَّد كرد علي
المتوفى سنة (١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م)

إعـــداد

د. عبدالله بن ناصر السدحان

المشرف على مركز تثمير للاستشارات

ملخص الدراسة

لقد مرّ الوقف بفترات نمو وازدهار لفت فيها النظر بعين الاعجاب، لا بسبب كثرته وانتشاره بين جميع طبقات المجتمع فحسب، بل بطول البقاء وديمومة النفع، تلك الديمومة التي أصبحت من مقومات العمل الخيري والإنساني في وقتنا الحاضر، وهذا البحث يهدف إلى إلقاء الضوء على الأوقاف التي خرجت عن هذه القاعدة وهي (الديمومة) اندثرت ودرست مع الدوارس التي ذكرها (مُحَمَّد كرد عليّ) رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الموسوعي الشهير (خطط الشام)، والتعرف على المآل التي انتهت إليه، ورصد عدد من الأسباب التي أدت إلى اندثار الأوقاف في بلاد الشام، وبما يمكن تعميمه من نتائج لظروف مشابهة، فمن خلال تتبع ما آلت إليه الأوقاف المندثرة يمكننا تصنيف مسارات المآل إلى عدد من النهايات المؤلمة، وتصنيفها إلى خمسة أقسام رئيسة على النحو الآتي: أوقاف لا يعرف حالها الآن أو مآلها. وهناك أوقاف انتهت إلى دور سكنيّة أو مخازن مستغلة من عامة الناس. وهناك أوقاف حولت إلى مرافق عامة من خلال الدولة. وأوقاف تحولت إلى كيان وقفي جديد أو ألحقت بأوقاف أخرى. وتبين وجود أوقاف خربت أو احترقت وصارت أنقاضًا. وأخيرًا هناك أوقاف تحولت إلى مقابر أو مزارات قبوريّة.

أما أسباب الاندثار التي رصدها البحث فهي عديدة ولكن من أبرزها: فساد النظّار المتولين على بعض الأوقاف التي اندثرت، أو هلاك النُظار بعد جيل أو جيلين دون وجود من يخلفهم، وهناك من الأسباب التلاعب بوثائق الوقف بهدف الاستيلاء عليه، وتبين سبب رئيس وهو تدخل المستعمر الفرنسي في إدارة الأوقاف الإسلامية، وهناك أوقاف اندثرت بسبب التأجير طويل الأجل، أو ما يسمى (التحكير)، وأخيرًا من الأسباب الرئيسة ذهاب وزوال العمران عن بعض المدن أو القرى وتبعًا لذلك زوال أوقافها من مساجد ومدارس وأربطة وغيرها.

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

يُعدُّ الوقف شامة في جبين الحضارة الإسلامية، بما يملكه من رصيد إنساني، وأخلاقي وخيريّ قدّمه للبشرية، فهو يساعد المسلم على إخراج نفسه من حيّزها الضيّق إلى حيّزها الاجتماعي الأوسع، ومن ضيق الفردية والأنانية، متجاوزًا الأنا إلى العموم شاملًا المجتمع؛ كل المجتمع بمختلف أفراده، وطوائفه، وشرائحه بخيرية الفرد، وبانيًا الجسد الواحد بكرم العضو وهذا التفاعل المجتمعي بين أفراد المجتمع تحقيقًا لحديث الرسول ﷺ الذي حدد فيه رسالة المسلم الواحد تجاه المجتمع، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**»[(١)].

فالوقف يمتلك خاصية تميزه عن بقية الأعمال التطوعية وهي مماسة الحاجات الإنسانية الفطرية لدى الفرد نفسه تجاه الآخرين والتعاطف الشمولي معهم، ما جعله يتمايز عن غيره من الأعمال التطوعية بمسافات اجتماعية واسعة جدًا، ومن ذلك عدم محدوديته مكانًا، وزمانًا، وكمًا، وكيفًا، إضافة إلى اتساع آفاق مجالاته الملبية للاحتياجات الفرديّة والجماعية، فضلًا عما يمتلكه من قدرة ذاتية على التجدد، حيث يتتبع مواطن القصور في المجتمعات ويعمل على سدّها من خلال مصارفه التي يختارها كل واقف بحسب ظروفه الزمانية والمكانية.

لقد مرّ الوقف بمراحل نمو وازدهار لفت فيها النظر بعين الاعجاب لكل سابر لمسيرته، لا بسبب كثرته وانتشاره بين جميع طبقات المجتمع فحسب، بل بتنوعه وتلمسه للاحتياجات المجتمعية، واتصافه بطول البقاء وديمومة النفع، تلك الديمومة التي أصبحت من مقومات العمل الخيري والإنساني في وقتنا الحاضر، وأحد مقاييس

(١) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم٦٠١١.

تميزه، ولا يمكــن أن تخطئ العين تلــك الخصيصة التي تميز الوقــف عن غيره من المجالات الخيريّة الأخرى، ألا وهي طول مدّة بقائه بشــكل عــام، وهذا لا ينفي وجود بعض القصص في الأوقاف أسدل الستار عنها بشكل سريع أو مفاجئ.

لقد كان موضوع غياب بعض الأوقاف عن مشــهد الحياة العامة محل تساؤل لدى الباحث، وحاول دراسته من خلال بحث سابق عن الاندثار القسري للأوقاف، وما زال الموضوع يحتاج إلى العشــرات من البحوث للوصول إلى تلك الأســباب التي أدت إلى ضياع بعض الأوقاف، وبحسب مفهوم المخالفة، فمثل هذه الدراسات تُفيد في التعرف كذلك على أســباب إطالة عمر الأوقاف ووســائلها، من خلال تلافي أســباب الاندثار وعلاج مسبباتها قبل الوصول إليها.

وهــذا البحث يهدف إلى إلقــاء الضوء علــى الأوقاف التي اندثرت ودرســت مع الدوارس التــي ذكرها (مُحَمَّد كــرد عليّ) رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الشــهير (خطط الشــام)، والتعرف على المآلات التي انتهت إليه، والخروج ببعض الاستنتاجات المتصلة باندثار تلك الأوقاف، وليس المقصد في هذا البحث أو أحــد أهدافه رصد الأوقاف المندثرة رصدًا عدديًا، أو تفصيليًا فإن ذلك مما يطول.

وقــد كان المعتمد في تتبع تلــك الأوقاف المندثرة ورصــد مآلاتها كتاب (خطط الشام) الذي طبعته مكتبة النوري بدمشق، للمرة الثالثة الصادرة في ستة مجلدات عام (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

وقد اتبعت المنهج الوصفي الذي يُعنى «بالوصول إلى المعرفة الدقيقة والتفصيلية لعناصر مشكلة أو ظاهرة قائمة، للوصول إلى فهم أفضل وأدق من خلال وصف ظواهر أو أحداث أو أشــياء معينة وجمــع الحقائــق والمعلومات والملاحظــات عنها، ووصف الظروف الخاصة بها»[1]، وقد قرأت الجزء المخصص للأوقاف من كتاب الخطط في الجزء الخامس والســادس مرتيــن، الأولى قراءة جــرد ورصد للأوقــاف المندثرة،

(١) مناهج البحث العلمي، مُحَمَّد سرحان علي المحمودي، مكتبة الوسطية للنشر والتوزيع، صنعاء، الطبعة الثالثة، ١٤٤١هـ/٢٠١٩م، ص٤٦.

والثانية قراءة تحليل واستنباط، للتعامل معها حين الكتابة ومناقشة أسباب الاندثار ومحاولة التعرف على مسوّغات الأيلولة.

وهذا الأسلوب في البحث العلمي ليس بجديد، وأعني به استقراء ظاهرة ما أو جوانب معينة من الحياة السابقة من خلال بعض الكُتب التاريخية تحديدًا، فعلى سبيل المثال هناك مَنْ درس الخدمات الوقفية من خلال كتاب الخطط للمقريزي[١]، وهناك مَنْ بحث في (مدارس دمشق ودورها الثقافي من خلال وصف ابن بطوطة)[٢]. كذلك وجد مَنْ درس (الأوقاف والمصارف الوقفية في رحلة ابن بطوطة)[٣] وهذه الدراسات مجرّد أمثلة، وإلا يوجد عدد من هذا النوع من الدراسات.

إننا إذ نذكر هذا المنحى من جوانب الأوقاف وهي (الأوقاف المندثرة) فإنه تحسن الإشارة إلى أنها لا تُمثل إلا نقطة في بحر الأوقاف العظيم، فهناك المئات، بل الآلاف من الأوقاف التي عُمرت قرون عددًا، وبعضها لا زال قائمًا حتى يومنا الحاضر، وقد ذكر جملة منها (مُحَمَّد كرد عليّ) في كتاب (خطط الشام)، وشاهد بنفسه من الأوقاف ما له مئات السنين ولا زال قائمًا، ومنها المدرسة (النورية الكبرى) أوقفت سنة (٥٦٣هـ)، وقال عنها: «وهي بعض دار هشام بن عبدالملك الأموي، وكانت قديمًا دار معاوية بن أبي سفيان ولا تزال المدرسة عامرة إلى يومنا»[٤] أي أن لها أكثر من ثمانية قرون، وقريبًا منها المدرسة (المعظمية)، وتاريخ وقفها (٦٦٠هـ) وهي قائمة[٥].

ومن الأوقاف المعمرة (الخانقاه الفخرية) في القدس داخل سور الحرم، وبجوار

(١) الخدمات الوقفية من خلال كتاب الخطط للمقريزي: دراسة تاريخية، أحمد خلف فندي السبعاوي، دار الكتاب الثقافي، عمان، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

(٢) مدارس دمشق ودورها الثقافي من خلال وصف ابن بطوطة، حسن حلمي أبو الفضل، مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، العدد ٢٨، المجلد الثاني، ٢٠٢٠م/١٤٤١هـ.

(٣) الأوقاف والمصارف الوقفية في رحلة ابن بطوطة: قراءة نقدية، عبدالله بن ناصر السدحان، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت العدد ٤٣، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م.

(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٩٥.

(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١١٩.

جامع المغاربة، موقوفة منذ العام (٧٣٢هـ) ولا تزال عامرة إلى يومنا هذا[١]، وكذلك (الخانقاه الصالحية) علو كنيسة القيامة وقفها صلاح الدين سنة (٥٨٥هـ) وهي موجودة»[٢]. ومنها (تكية خاصكي سلطان) أنشأتها أم السلطان سليمان، ولا تزال عامرة تفرّق الحساء والخبز». ومثلها (تكية سيدنا الخليل) في مدينة الخليل تعمل الحساء والطعام[٣]، ومنها المدرسة (النصرية) التي «عرفت بالغزالية نسبة لأبي حامد الغزالي وقد أتم تأليف كتابه إحياء العلوم فيها فيما قيل، وتاريخ وقفها سنة (٦١٠هـ) وهي الآن غرفتان عامرتان معدتان للزيارة[٤].

وبكل حال هناك غيرها من الأوقاف المُعمرة خارج بلاد الشام بطبيعة الحال، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: وقف الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه في المدينة المنورة (بئر رومة) الذي يزيد عمره الآن على (١٤٠٠) سنة، ولا زال قائمًا[٥]. ووقف المغاربة في مكة المكرمة الذي يزيد عمره على ثمانية قرون، فتاريخه حسب أول وثيقة له عام (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) ولا زال قائمًا[٦]. ووقف صبيح في بلدة أشيقر في نجد في المملكة العربية السعودية، وعمره الآن تجاوز سبعمئة عام (سبعة قرون) ولا زال نخيل ذلك الوقف الذي جُدِّدَ أكثر من مرة يُنتج ويُصرف في مصارفه التي حددها الواقف[٧].

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٤٨.

(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٥٠.

(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٥١.

(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١١٧.

(٥) للمزيد من أخبار هذا الوقف المبارك انظر كتاب: الأوقاف النبوية وأوقاف الخلفاء الراشدين، عبدالله بن مُحَمَّد الحجيلي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٣١هـ/٢٠١١م، ص١٦٩ وما بعدها، وقد زار الباحث هذا الوقف عام ١٤٣٠هـ/٢٠١٠م، وهو قائم وتشرف عليه وزارة البيئة والمياه والزراعة في المملكة العربية السعودية، ولا يزال موجود ويعمل حتى هذا العام ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م.

(٦) للمزيد من أخبار هذا الوقف انظر: الأوقاف المعمرة سماتها وعوامل استدامته: دراسة حالة لعدد من الأوقاف في المملكة العربية السعودية، ياسر بن صالح الصقير، مركز استثمار المستقبل، الرياض، ١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م، ص٢٦ وما بعدها.

(٧) للمزيد من أخبار هذا الوقف انظر كتاب: وقف صبيح من أشيقر منذ عام ٧٤٧هـ، عبدالحليم بن عبدالعزيز مازي، مؤسسة ساعي لتطوير الأوقاف، الرياض، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.

ومن تلك الأوقاف المُعمرة كذلك وقف الشريف غالب في مكة المكرمة وجدة والطائف وضواحيها[1]، وهو من الأوقاف الذريّة وقد تجاوز عمره (٢٧٠) سنة ولا زال قائمًا وينمو باطراد نتيجة التعويضات التي حصل عليها من توسعات الحرم المكي، وكما ذُكر آنفًا كل هذه الأوقاف قائمة حاليًا ومُدرة، وتصرف غلتها كما أراد واقفوها، ولله الحمد.

إن هذه الدراسة تسعى لكشف جانب من جوانب المسيرة الوقفيّة للمجتمع المسلم، طالما غاب عنها القلم البحثي، وهي التعرف على ما غاب من الأوقاف، والتعرف على سبب غيابه وكشف مآلاتها ومحاولة التعرف على سبب اندثارها، واستخلاص العبر لتوظيفها في تشخيص الواقع والانتقال إلى التخطيط للمستقبل، وبخاصة أنه يمكن تعميم تلك الأسباب التي أدت بهذه الأوقاف محل الدراسة إلى الاندثار، وما آلت إليه بعد اندثارها على مناطق واسعة من العالم الإسلامي مكانًا وزمانًا، استفادة من درس تاريخي رصده الباحثون، لتكون دافعًا لإعادة رسالة الأوقاف كما كانت سابقًا.

وسيكون البحث وفق العناصر الآتية:

أولًا: تعريف مختصر بالوقف وتقسيماته.

ثانيًا: التعريف بكتاب خطط الشام ومؤلفه، وسبب اختياره محل الدراسة.

ثالثًا: مآلات الأوقاف المندثرة (تحديد الأوقاف ـ المآلات).

رابعًا: الأسباب التي أدت إلى اندثار الأوقاف.

والله الموفق

(١) للمزيد من أخبار هذا الوقف انظر: الأوقاف المعمرة سماتها وعوامل استدامته: مرجع سابق، ص٥٧ وما بعدها.

أولًا: تعريف بالوقف وتقسيماته

يُعرف الوقف في اللغة بأنه: الحبس والمنع، ويقال: وقفت الدابة إذا حبستها على مكانها[١]، وفي أوضح تعريف للفقهاء وأيسر عبارة لهم في الوقف وأقربها للمراد الشرعي هو قولهم: الوقف هو: تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة[٢].

والأصل في مشروعية الوقف؛ السنة المطهرة والإجماع في الجملة، فيذكر الامام القرطبي في تفسيره: «إنه لا خلاف بين الأمة في تحبيس القناطر والمساجد، واختلفوا في غير ذلك»[٣]. ولقد اتفق جمهور علماء السلف على جواز الوقف وصحته بناءً على الأدلة الآتية من القرآن الكريم، ففيها حث على فعل الخير والبر والإحسان، وهو ما يرمي إليه الوقف، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة، الآية: ٢٧٢].

كما ورد في عدد من الآثار القولية والفعلية عن الرسول ﷺ مشروعية الوقف، ومن ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما الذي يقول فيه: (أصاب عمر بخيبر أرضًا، فأتى النبي ﷺ فقال: أصبت أرضًا، لم أصب مالًا قط أنفسَ منه، فكيف تأمرني به؟ قال: «**إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا**»، فتصدّق عمر: أنه لا يباع أصلها، ولا يوهب، ولا يورث، في الفقراء والقربى، والرقاب، وفي سبيل الله، والضيف، وابن السبيل، لا جناح على مَنْ وليها أن يأكل منها بالمعروف، ويطعم صديقًا غير متموّل فيه) (**متفق عليه**)[٤]. ويدخل الوقف في حديث الرسول ﷺ «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ**

(١) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ج ٩، ص ٣٥٩.

(٢) المغني، ابن قدامة، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي وعبدالفتاح محمد الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٧هـ، الجزء الثامن، ص ١٨٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي، أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٥هـ، المجلد العاشر، ص ١٥.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الوقف، حديث رقم ٢٧٣٧. وكذلك صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب الوقف، حديث رقم ٤٢٢٤. واللفظ للبخاري.

عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» (رواه مسلم)[1] وقال النووي عند شرح الحديث: إن الوقف هو الصدقة الجارية، وفيه دليل لصحة أصل الوقف وعظيم ثوابه[2].

وللوقف أركان كسائر الالتزامات العقدية التي يبرمها الإنسان، فالأركان المادية هي: وجود شخص واقف، ومال يوقف، وجهة يوقف عليها. والركن الشرعي، وهو العقد، هو الإيجاب فقط من الواقف بإحدى صيغه الشرعية المعتبرة سواءً الصريحة منها أم الكناية إذا قرنت بقرينة تفيد معناه

وينقسم الوقف ثلاثة أقسام:

١ ـ **الوقف الأهلي:** وهو ما كان على الأولاد والأحفاد والأسباط والأقارب ومَنْ بعدهم من الفقراء ويسمّى هذا بالوقف الأهلي أو الذري، ويقوم على أساس حبس العين والتصدق بريعها على الواقف نفسه وذريته من بعده أو غيرهم بشروط يحددها الواقف[3].

٢ ـ **الوقف الخيري:** أو الوقف العام، وهو الذي يقصد الواقف منه صرف ريع الوقف إلى جهات البر التي لا تنقطع سواء أكانت معينة كالفقراء والمساكين، أم جهات برّ عامة كالمساجد والمدارس والمستشفيات... إلى غير ذلك.

٣ ـ **الوقف المشترك:** وهو مختلط بين الأمرين أو قد يبدأ كونه وقفًا أهليًا ثم ينتهي به الأمر إلى صيرورته وقفًا خيريًا بعد انقطاع من يستفيد منه من ذرية الواقف، ومرد ذلك كله شرط الواقف.

(١) صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم ٤٢٢٣.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، محيي الدين أبي زكريا النووي، دار الخير، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، الجزء الرابع، ص ٢٥٤.

(٣) الوقف الخيري وتميزه عن الوقف الأهلي، محمّد بن احمد الصالح، في (ندوة الوقف في الشريعة الإسلامية ومجالاته)، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٢٣هـ، ص ٢٤.

ثانيًا: التعريف بكتاب خطط الشام ومؤلفه، وسبب اختياره

مؤلف الكتاب هو محمد بن عبدالرزاق بن مُحَمَّد كرد عليّ، أصله من أكراد السليمانية (من أعمال الموصل) في العراق، وُلد في مدينة دمشق، وتوفي بها كذلك، وعاش حياته بين عامي (١٢٩٣-١٣٧٢هـ/١٨٧٦-١٩٥٣م)، صاحب مجلة (المقتبس) والمؤلفات الكثيرة، وأحد كبار الكتّاب، وكان يُحسن مع العربية اللغة التركية، والفرنسية، والفارسية، وولي وزارة المعارف مرتين[١]. أسّسَ وَرَأَسَ المجمع العلمي العربي في دمشق، واختير عضوًا في مجمع اللغة العربية في القاهرة مدة تزيد على عشرين عامًا.

كان تأسيس (مُحَمَّد كرد عليّ) في جانبه العلمي والمعرفي مستقى من ثلاثة مشارب رئيسة كونت ذلك العالم المتميز، أول هذه المشارب: دراسته النظامية في المدارس القائمة آنذاك في دمشق وتحديدًا في مدرسة الرشدية، وثاني مصادر تعلمه وتكوينه العلمي هو: تتلمذه على بعض شيوخ عصره في دمشق، وتوّج كل ذلك: بمطالعاته وقراءته الخاصة باللغات التي يجيدها، وهذه المطالعات والقراءات كثيرة جدًا، بل تكاد تكون هي من أكثر ما بلّغه تلك المنزلة العلميّة بين أقرانه ويبزهم، كما طاف في بلدان كثيرة، وزار بعض الدول الأوربية، وكذا رحلاته المتكررة إلى القاهرة، وكان لرحلاته إلى القاهرة أثر كبير في حياته نتيجة تواصله العلمي مع علماء مصر آنذاك، إذ عزم على إصدار مجلة المقتبس فور عودته إلى دمشق فكان ذلك، وكانت أول جريدة يومية صدرت في دمشق. وقد تعلّق قلبه وعقله بدمشق، وكتب عنها عددًا من المقالات والكتب، ومنها كتاب (دمشق مدينة السحر والشعر)، وكتاب (غوطة دمشق)، مع ما كتبه عن مدينة دمشق تفصيلًا في أحد أشهر كتبه وهو كتاب (خطط الشام).

(١) الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، الجزء ٦، ص٢٠٢.

التعريف بالكتاب:

يُعدُّ كتاب خطط الشام من الكتب الموسوعية التي بذل فيه مؤلفه جهدًا غير عاديٍّ لرصد المسيرة: التاريخية، والاجتماعية، والعمرانية لبلاد الشام، وقد حدّد المؤلف بلاد الشام بأنها «الأصقاع التي تتناول ما اصطلح العرب على تسميته بهذا الاسم، وهو القطر الممتد من سقي النيل إلى سقي الفرات، ومن سفوح طوروس إلى أقصى البادية، أي سورية وفلسطين في عرف المتأخرين»[(١)]. وقد استغرق تأليف هذا الكتاب المنشور في ستة مجلدات ثلاثين عامًا من عمر المؤلف، وطالع لأجله كما يقرر ذلك بنفسه «زهاء ألف ومئتي مجلد باللغات الثلاث العربية والتركية والفرنسية»[(٢)].

وفي هذا البحث عن الأوقاف المندثرة وسبب اندثارها، اعتمدت على النسخة التي طبعتها مكتبة النوري عام (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) في دمشق، وهي الطبعة الثالثة، وتقع في ستة مجلدات بصفحات بلغ مجموعها أكثر من (١٨٠٠) ألف وثمانمئة صفحة.

ففي المجلد الأول والثاني تناول المؤلف الجانب التاريخي لبلاد الشام منذ فجر التاريخ وحتى نهاية الدولة العثمانية.

وفي المجلد الثالث، كان حديث المؤلف عن تجزئة الشام بين فرنسا وإنكلترا وصولًا لتاريخ الصهيونية واليهود، ثمّ تحدّث عن التقاسيم الإدارية الحديثة والحركات السياسية.

وفي المجلد الرابع من الكتاب فصّل في التاريخ المدني للشام.

أما في المجلد الخامس فأخذ بالتفصيل في الجانب الاجتماعي والحياتي والمعاشي لأهل الشام؛ فتحدّث عن الزراعة وأصنافها والصناعات بأنواعها ومن ثم التجارة وأشكالها، والجباية، والخراج، والأوقاف، والحسبة، والبلديات، والطرق، والموانئ، والمرافئ، والمباني.

(١) خطط الشام، مُحَمَّد كرد علي، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، الجزء ١، ص٢.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٣٤٦.

وخصّص المجلد السادس للحديث عن الأديرة، والكنائس، ثم المساجد، والمدارس، والخوانق، والربط، والزوايا، والمستشفيات، ودور الكتب والآثار، والأديان، والأعراق، والمذاهب.

ويُقصد بالخطط كل ما يتناول العمران، وتخطيط بلد ما والبحث في تاريخه وحضارته، وهو هنا يُقصد به دراسة تخطيط الشام وعمرانها، كما حددها المؤلف بحدود جغرافية وبلدانيّة واضحة.

سبب اختيار كتاب خطط الشام:

لقد كان اختيار كتاب خطط الشام لرصد الأوقاف المندثرة ومآلاتها بسبب كون الكتاب يتصف بالشمولية، وهو أقرب ما يكون في وقتنا الحاضر إلى ما يوصف بأنه ضمن الدراسات التتبعية، وهو يُعدُّ أكبر موسوعة كُتبت عن بلاد الشام في العصر الحديث، فقد «صاغتها يد أُديب مؤرخٍ، وَقَلَّ مَنَ يجمع بين هاتين الخصلتين، فكان الكتابُ مرجعًا مهمًا عن الشام وأوابدها وعمرانها وتاريخها، بل إن هذا الكتاب أصبح قرين اسمه إذا ذكر، بل قد رقّاه إلى مستوى المؤرخّين في قرنه. وهو بذلك يعيد صياغة تَاريخ البلاد بأسلوب عصريّ بعدما سبقه ابن عساكر في كتاب تاريخ مدينة دمشق الذي خصصَ الأجزاء الأولى من كتابه للخطط»[(١)].

والكتاب خلاصة ثلاثين سنة استُغرِقت في جمع مادته والتأليف بينها، فلا يترك بلدة، أو قرية، أو جبلًا، أو بناءً، أو أثَرًا، أو مسجدًا وجامعًا، أو مدرسة، أو رباطًا، أو زاوية إلا تكلم عنه، فقد ذكر بعض من ترجم للمؤلف أنه «زار أصقاع الشام، ورحل إلى أوربا ثلاث رحلات، يبحث في دور كتبْها عن المخطوطات التي يرجو أن يكون أصحابهُا قد تعرضّوا لحوادث هذا القطر، حتى كانت له مادة واسعة، وسافر بعدها إلى ربوع الغرب يطوف مكتباتها»[(٢)].

(١) مُحَمَّد كرد علي: المؤرخ البحّاثة والصحافي الأدي، إياد خالد الطباع، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ١٠٠.

(٢) مُحَمَّد كرد علي: المؤرخ البحّاثة والصحافي الأدي، مرجع سابق، ص١٠٢.

ويحكي (مُحَمَّد كرد عليّ) في مذكراته عن نفسه وهو يصف كيف وضع كتاب (خطط الشام)، حيث يقول: «أخذت أبحث عن الكتب، وأزور المعالم والمجاهل، واستكثر من اقتناء الأسفار النادرة باللغات الثلاث: العربية، والفرنسية، والتركية، ولا سيما الأسفار العربية القديمة إلى أحياء علماء المشرقيات من الغربيين، وكنت أطالع كل ذلك مطالعة تدبر والتقط جواهرها، ولما استوفيت البحث في خزائن مصر والشام وبعض خزائن الأستانة تعلقت همتي أن أرحل إلى أوربا ليتسع مع مجال النظر في خزائن كتبها العربية والإفرنجية»[(١)].

ولكن كانت محطته الرئيسة خزانة الأمير (ليوني كايتاني) في روما، وهو صاحب كتاب (تاريخ الإسلام)، فقد كانت مكتبته تحوي العشرات من الكتب الأصلية، والمصورة والمخطوطة عن بلاد الشام ودمشق مما لم يُطبع بعد، وكان هذا بنصيحة من المستشرق الألماني (مارتين هارتمان) حين زار دمشق، ويذكر (مُحَمَّد كرد عليّ) أنه كان يبحث ويقرأ ويكتب في تلك الخزانة كل يوم ثلاث ساعات في الصباح مدة شهر كامل[(٢)].

إن هذا الجهد الذي بذله المؤلف في تأليف هذا الكتاب يجعله في خانة الموسوعات أكثر من كونه كتابًا تاريخيًا فحسب، ويجعل مَنْ وَصَفَ المؤلف بأنه كاتب موسوعي مُحِقًّا في ذلك[(٣)]، فقد أنفق المؤلف فيه جزءًا ليس بالقليل من عمره، وسعى إلى مكتبات العالم للبحث عن مصادره ومراجعه مما طُبع، ومما لم يُطبع آنذاك، والذي يظهر أنه كان يَعُدُّهُ أعظم عمل علمي في حياته، وكل ذلك الجهد العلمي النظري لكتابة تلك الموسوعة صاحبه المعرفة العميقة واللصيقة لمدينة دمشق من

(١) المذكرات، مُحَمَّد كرد علي، مطبعة الترقي، دمشق، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م، ص ٣١٠.

(٢) المذكرات، مرجع سابق، ص ٣١١.

(٣) تُعرف الموسوعة بأنها: كتاب يجمع معلومات في كل ميادين المعرفة والفنون، أو في ميادين منها، وهذا ما ينطبق تمامًا على كتاب (خطط الشام)، ويقال: كاتب موسوعي نسبة إلى موسوعة، وهو العالم الجليل ذو لمعارف الواسعة.
انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٩م، الطبعة الأولى، الجزء الثالث، مادة وسع، ص ٢٤٤٠.

لدن المؤلف لكل تفاصيلها بحكم ولادته ونشـأته فيها، وتعلقه الشـديد بها، كما أنه شاهد عصر على تلك الأوقاف سواء ما كان منها باقيًا حتى الآن، أم ما اندثر وزال من الوجود، وهذه ميزة للكتاب والكاتب بمـا يجعله يختلف عن غيره من الكتب التاريخية التي كتبت عن تلك الأوقاف قديمًا.

لأجل هذا وذاك كان اختيار هذا الكتاب لما تميز به من وصف دقيق للأوقاف التي نشأت واندثرت في بلاد الشام أو بقيت، فهو يتحدث عنها مُبينًا واقع كل وقف سواء من حيث ديمومته أم زواله، وأيلولته إلى شـكل جديد، وهذه الميـزة جعلت كتاب (خطط الشـام) يُحقق هدف البحث تمامًا في معرفة مآلات الأوقاف التي اندثرت، ويمكن إلى حد كبير تعميم هذه المآلات على غيرها من الأوقاف في العالم الإسـلامي، مما يفسر واقع الكثير من الأوقاف التـي أصبحت في حكم المجهولية في وقتنا الحاضر في عدد من العواصم الإسلامية.

نظرة المؤلف إلى الأوقاف وسبل إصلاحها:

أوجزَ (مُحَمَّد كرد عليّ) نظرته للأوقاف، وما تعانيه من مشكلات، وسبل إصلاحها من وجهة نظره في أكثر من ثلاثين صفحة من كتاب الخطط[1]، وسوف أحاول اختصار نظرته لواقع الأوقاف لانعكاس أثر هذا التصور لديه عما سطّره عن واقع الأوقاف وما تعرضـت له من اندثـار في بلاد الشـام، والوصوفـات التي صوَّر بها تلـك الأوقاف المندثرة، وتفصيله لأسـباب اندثار بعضها منها، وسيكون ذلك مختصرًا جدًا ليتناسب وحجم هذا البحث.

فبداية نجـده يقرر أن الأوقاف علـى الجوامع والمدارس والربط والمستشـفيات والزوايا وغيرها كثُرت بين أصحاب الأموال في عصور المصادرات فرارًا بأموالهم من مصادرات الملوك إذا غضبوا عليهم ونحّوهم عن وظائفهم[2]، ويستشهد بمدارس دمشق

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٥، الصفحات (٨٩-١٢٢).

(٢) هذا الذي ذكره (مُحَمَّد كرد عليّ) من كون أسـباب كثرة الأوقاف هو الفرار من المصادرة هو أحد التفسيرات، وهناك تفسيرات أخرى لها وجاهتها، فهناك من يعلل ذلك بحب التظاهر والشهرة وهذا رأي المؤرخ ابن تغري بردي =

وحلب وهي لا تقل عن ثلاثمئة مدرسة، وأنها من أوقاف السلاطين والعمال، وقليل منها قام بوقفه التجار وأهل الخير. فلم يكن شأن في مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير أرباب الدولة أو من كان يعد في جملتهم، ويقرر (مُحَمَّد كرد عليّ) أن الناس يحاذرون أن تنشأ لهم شهرة في الثروة، والثروة تتجلى في الدار والفرش والدابة واللباس، وفي بذل المال لإقامة دور العلم وإيواء اليتامى والمحاويج، فكانوا يتظاهرون بالفقر لينجوا من مخالب العمال.

لذا لم يستغرب من تفنن القوم في أنواع الأوقاف مما أوشكت أن تكون معه معظم ديار الإسلام موقوفة. ويعتقد أن الأوقاف كانت نافعة في الصدر الأول لقلتها، ولأنها محبوسة على وجوه البر وعلى البائسين خاصة.

ثمّ يربط بين الوقف الأهلي تحديدًا والعطالة، فيرى أن الواقف يقف أملاكه أو شطرًا منها لتكون من بعده وسيلة إلى التعاطف بين الذراري والأعقاب، فما هو إلا جيل أو جيلان حتى تغدو أوقافه ذريعة للتقاطع والتدابر، وليس هذا فحسب، بل يكونوا ألفوا الاتكال، وانقطعت أيديهم عن الأعمال، ويؤكد بشدة أن من وقفوا الأوقاف وحبسوا الأحباس لأبنائهم ومن يجيء بعدهم قد أضروا بهم أكثر مما نفعوهم، فالإفراط في الإفضال على العاجزين عن الكسب قد يورث الخمول فالرزق كالحياة لا طاقة لصغير أو كبير أن يضمنه لنفسه فكيف به لغيره.

كما يرى أن الاستكثار من الأوقاف للأراضي والمزارع والحقول والدور قد أخّر سير الشرق في محجّة الترقي؛ لأنها أضرّت بالجباية التي تصرف في مصالح

= المتوفى عام (٨٧٤هـ/١٤٦٩م) انظر: السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، حياة ناصر الحجي، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٣هـ، ص٧٣. كما يوجد تحليل موسع لمحاولة التعرف على سبب تزايد الأوقاف في المرجع نفسه في الصفحات: ٧٢-٧٦. وهناك من يؤكد أن الدوافع الدينية هي السبب؛ بدليل كثرة أوقاف النساء، ولم يكن ثمة مناصب قيادية لهن حتى يلحقهن عزل أو مصادرة، انظر: أوقاف النساء في بلاد الشام وأثرها في الحياة العامة خلال العصر المملوكي، شيخة بنت مُحَمَّد الدوسري، مركز باحثات لدراسات المرأة، الرياض، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، ص٢٧٧. وأيا كانت الدوافع التي يستنبطها المؤرخون، فهذا لا ينفي وجود دوافع خيرية، ولا يعلم النوايا إلا الله ﷻ.

الدولة؛ لأن إعفاء الأحباس من الخراج يسلب الحكومة جزءًا مهمًا من ريعها وارتفاعها. كما أن حظر بيع الوقف يعبث بريعه على وجه الإجمال؛ لأن أموال الأوقاف وعقاره لا تستثمر استثمارًا جيدًا.

ثمّ يقرّر أن الناس محتاجون بسائق الاضطرار إلى البيع، والابتياع، والمقايضة، فما دام الإنسان مدنيًا بالطبع، فهو مضطر إلى التعامل بالتبادل الذي هو محور دائرة المنفعة الاقتصادية، وهي دعامة العمران، وقد أورث تهافت السلف على الوقف اصطدام سكونه المؤبد بحركة التعامل الاقتصادي الضروري الاستمرار؛ لأن التصرف بالعقارات الموقوفة بيعًا أو شراءً ممنوع شرعًا، وبواعث العمران والاقتصاد تقتضي هذا التصرف طبعًا، درءًا لخطر الآفات الاجتماعية، والأزمات الاقتصادية. ولذا اخترعوا ما يدعى في الديار الشامية بالمرصد، والتحكر، والإجارتين، وأخرجوها بهذا العمل عن ملك الوقف إلى ملك خاص، ومرمى هذا المخرج تحرير العقارات الموقوفة بالجملة بمنح التصرف بها بيعًا وشراءً مراعاة للمصلحة الاقتصادية.

ومع اعتراف (مُحَمَّد كرد عليّ) بضرورة اختراع هذا المخرج لِيُسْرِ الشريعة واتساعها وملاءمتها لمقتضيات الزمان والعمران، إلا أن التوسع الفاحش في تلك المخارج نجم عنه اندثار الأوقاف وانهيار معالمها؛ لأنه فسح مجالًا لابتداع الحيل التي مهدت السبل لاختلاس الأوقاف وطمس معالمها مع تطاول الزمن، فطفق الناس يتملكون العقارات الموقوفة تملكًا محضًا، وإن ظلت عليه شية من مسحة الوقف باسم الحكر ونحوه من الحيل التي جرأت الظلمة فيما بعد على اختلاس المساجد والمدارس والمقابر مباشرة مع عقاراتها الموقوفة عليها دون التذرع بهذه الحيل، بل إن بعض المتولين أنفسهم كانوا يخونون الوقف باتخاذهم مخرج المرصد حيلة، إذ يتذرعون به بلا اضطرار إليه لتحويل العقار من الوقف المحض إلى المرصد.

ثمّ يرى أن وسائل إصلاح الأوقاف ترتكز على وجود علماء الشريعة المجددين، والحقوق، والإدارة، والاقتصاد، مجتمعين ليدون أعضاؤها مجموعة لأحكام الأوقاف

الشرعية على نسق جديد من كل مذاهب الأئمة المجتهدين، ما هو أصلح وأضمن لسعادة الأوقاف وارتقائها وإثرائها، واستمرار بقاءها، وصيانتها من عبث العابثين، مع ضرورة محاسبة النظار.

وأخيرًا يشدد على أنه ليس مع من يقول بإلغاء دواوين الأوقاف الحكومية، وإناطة الولاية على الأوقاف الإسلامية بمجلس إسلامي أهلي ينتخبه الأهلون؛ لأن المجالس الأهلية مهما بلغت من النظام والانتظام لا تضارع دواوين الحكومة المسؤولة والمؤاخذة قانونًا على الكبيرة والصغيرة، فضلًا عما تملكه الحكومة من سلطة لا يملكه سواها.

هذا ملخص نظرة (مُحَمَّد كرد عليّ) للأوقاف وسبب تدهورها، والطريق السوي لعلاجه ما تعانيه من ويلات، وقد انعكس ذلك على كثير من توصيفه للأوقاف المندثرة، وشنع بشكل مفرط على فساد النُظار وخيانة بعضهم للأمانة التي تولوها، ثمّ تحميل تبعة تلك الخيانة لأبنائهم من بعده بالتوارث وتضمين تعاقبهم في النظارة لكيلا يخرج الوقف من سيطرتهم.

ثالثًا: مآلات الأوقاف المندثرة

تطلق العرب كلمة اندثر على الشيء إذا غاب وانتهى من الوجود، فيذكر ابن منظور في لسان العرب أن «الدثور الدروس وقد دثر الرسم وتداثر ودثر الشيء يدثرُ دثورًا واندثر: قَدُمَ ودرس.. وتقول للمنزل وغيره إذا عفا ودَرَسَ: قد دثر دثورًا»[(١)]، وذكر الفيروز آبادي أن «الدثور: الدروس، وللنفس: سرعة نسيانها، وللقلب: امحاء الذكر منه، والداثر: الهالك»[(٢)].

وقد أوردت الموسوعة الفقهية الكويتية هذا المعنى بكلمة أخرى مرادفة هي كلمة (اندراس) وعرفته بأنه عفو الشيء واختفاء آثاره، ومثله الانمحاء بمعنى ذهاب

(١) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ الجزء ٤، ص٢٧٦.

(٢) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٢هـ، ص٣٦٤.

الأثر، ولا يخــرج المعنى الاصطلاحي عن هذا، حيث يســتعمله الفقهاء في ذهاب معالم الشيء وبقاء أثره فقط.. ومعنى اندراس الوقف أنه أصبح بحالة لا ينتفع به بالكلية، بألا يحصل منه شيء أصلًا، أو لا يفي بمؤنته كأوقاف المساجد إذا تعطلت وتعذّر استغلالها[1].

ومن هنا لا بد أن نفرق بيــن الأوقاف ذاتها التي هي العيــن الموقوفة، وبين مصارفها، فالوقف كما ذُكر آنفًا قد يكون مُنشــأة مثل: المســجد، والمدرسة، أو البيمارســتان (المشــفى)، أو دار الأيتام، وهذه غالبًا موقوفة، ولا يمكن التصرف فيها؛ لأنهــا خرجت من ملك مالكهــا الواقف إلى ملك الله ﷻ، وهــي غير مُدرة بنفســها، ولا يوجد لها غلــة، وتحتاج إلى مصادر مســاندة لها لكي تســتمر في رسالتها، كأن يكون لها ضياع، أو مزارع، أو حوانيت، أو طواحين، أو قرى زراعية، أو دور، أو منازل تُدرُ عليها غلة لتستمر في أداء رسالتها وتحقيق أهدافها.

وهناك أوقاف مدرة بنفسها، مثل: الدور والبيوت، أو البساتين، أو المزارع، أو الدكاكيــن، أو المخازن، أو المطاحــن، فيكون لها غلة ســنوية ومصارف محددة يحددها الواقف.

وســوف نتناول في هذا المبحث، أنواع الأوقاف التي تعــرض لها (مُحَمَّد كرد عليّ) في كتابه (خطط الشــام)، وكذلــك المصطلحات التي اســتخدمها المؤلف للتعبير عن الاندثار، وأخيرًا مآلات الأوقاف المندثرة، وذلك على النحو الآتي:

١ ـ تحديد الأوقاف محل الدراسة:

ذكر محمد كرد علي في كتابه (خطط الشــام)، عددًا من الأوقاف مستعرضًا حالها ومآلها، وهي أنواع عدة من الأوقاف، يمكن تصنيفها في المجالات الرئيسة الآتية:

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ١٤٠٦هـ، الجزء السادس، ص ٣٢٤.

١) الأوقاف ذات الصبغة الدينية التعبدية:

ومن ذلك على سبيل المثال المساجد، والجوامع، ودور القرآن الكريم، ودور الحديث، والأربطة، والزوايا، الخانقات[١]. ومن المستحسن الإشارة إلى أن الأربطة، والزوايا، الخانقات أكثر من استفاد منها المتصوفة[٢].

٢) الأوقاف التعليمية والثقافية والمكتبات:

وأبرز ما يمكن رصده في هذا المجال هي المدارس، والمكتبات، وهي أكثر ما تعرّض لها المؤلف، ولا يخفى أن السبب في ذلك يعود لكثرة هذه الأوقاف لحرص الواقفين عليها، للأجر المتعدي والفضل الكبير في نشر العلم، وتعليم الناس أمور دينهم ودنياهم.

٣) الأوقاف الصحيّة:

لا يخفى أن الشكل الأظهر في الأوقاف الصحيّة هي البيمارستانات، وبيمارستان لفظة فارسية الأصل مُركّبة من كلمة (بيمار) وتعني مريضًا أو مُصابًا، و(ستان) وتأتي بمعنى دار. وبهذا يكون معنى «بيمارستان» «دار المرضى»[٣].

---

(١) الأربطة، والزوايا، الخانقات وإن تعددت تعاريفها وتوصيفاتها إلا أنه يجمعها أنها مكان مخصص للعبادة ويأوي إليه الغرباء، مع ملاحظة أن وظيفة كل منهما قد تغيرت مع مرور الوقت، فعلى سبيل المثال نجد الرُبط وهي الأماكن التي أُعِدَّتْ على الثغور للمجاهدين قد تحولت مع الوقت إلى أماكن للمتفرغين للعبادة، ويؤكد ذلك وجودها في أماكن بعيدة عن الثغور الإسلامية. ثمّ أصبحت تتركز حول القبور والمشاهد البدعية، وجميع هذه المنشآت (الأربطة، والزوايا، الخانقات) وجدت في نظام الوقف أكبر رافد مكنها من مواصلة رسالتها. انظر: الأوقاف والمجتمع، عبدالله بن ناصر السدحان، مؤسسة ساعي لتطوير الأوقاف، المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، ص٥٤ وما بعدها. وكذلك: الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن الهجري، علي منصور نصر شهاب، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسالة١٦٩، الحولية الثانية والعشرون، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت، ٢٠٠١م، ص٣٠.

(٢) يرى (مُحَمَّد كرد عليّ) أن الزوايا الصوفية قد أجدبت من التصوف بمعناه الصحيح، وأقفرت من المريدين الصادقين، وأضحت مقر الدجالين العاطلين، والمريدين الكسالى، وينتهي إلى القول: إن أمثال هؤلاء يجب طردهم من الزوايا التي لم ينشئها الواقفون ليأوي إليها الضالون المضلون، باسم التصوف والطرق الصوفية، وإذا كان لهم أوقاف يجب تحويلها إلى مصارف البر والإحسان والإسعاف العام». انظر: خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٥، ص١١٩.

(٣) تاريخ البيمارستانات في الإسلام، أحمد عيسى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ١٤٣٢هـ/٢٠١٢م، ص٨.

٢ ـ المصطلحات التي استخدمها المؤلف للتعبير عن الاندثار:

لقد كان (مُحَمَّد كرد عليّ) متألمًا أشد الألم وهو يتحدث عن اندثار تلك الأوقاف وضياعها أيًا كان السبب، فتكاد ترى الدموع تنساب من عينيه بين صفحات الكتاب وهو يتحدث في خاتمة ذكره لجملة من الأوقاف والمدارس التي خربت واندثرت، فيقول بحرقة: «أرأيت أيها الناظر في هذا الكتاب كيف كان عمل الأجداد في إنشاء المدارس، والربط، والخوانق، والمستشفيات، وكيف تساوى في تأبيدها والوقف عليها الملوك والعظماء وجمهور الناس من الرجال والنساء.. وكيف جودوا بناءها وأحكموا وقوفها الدارّة، ومع هذا لم تقو على مقاومة المخربين والغاصبين، فعاد أكثرها دُورًا وحوانيت، استصفاها من ارتكبوا العار في الاستيلاء عليها من دون حرج.. ترى هل تلام الحكومات على هذا العبث بالمدارس وانتهاك حرمتها أم تلام الأمة؟ ومنذ عبث العابثون بالمدارس، وسرق السارقون عينها ومغلها، تراجعت دروس الدين وتراجعت معها دروس العلوم الأخرى.. أضاع الخلف ما أبقاه السلف معمورًا زاهرًا من المدارس التي كانت في العصور الغابرة غاية ما وصل إليه العقل البشري ظرفًا ومظروفًا، وبها أثبت أجدادنا أنهم كانوا شيئًا مذكورًا في إتقان الهندسة والبناء، وأنهم على جانب من سلامة الذوق، وأنهم حرّاص على مجد أمتهم»[(١)].

لأجل ذلك لا عجب أن تتنوع عباراته في وصف الحال الذي وصلت إليه بعض الأوقاف، فمن خلال تتبع العبارات التي استخدمها المؤلف، تبين أن عباراته تنوعت بتنوع النهاية التي استقرت على الواقع الاندثاري للوقف، وبما يتناسب مع الحال الذي وصل له الوقف، وسبب اندثاره.

وبداية نراه يكثر من ذكر عبارة صغيرة المبنى والتركيب ولكنها كبيرة المعنى مثل قوله: إنها (أطلال)، أو أنها (درست مع الدوارس)، أو عبارة أنها (لم يبق لها عين ولا أثر) لبعض المدارس أو الزوايا، ومثلها حين يذكر عن مدرستين (أنهما نُسيتا ونسي مكانهما)[(٢)] ويصف إحدى المدارس بقوله: أو (زالت ولا يعرف غير أطلالها

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٦٣.

(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٨٥.

وحجر بابها)[١]، أو عبارة مؤلمة مثل (وهذا الرباط الآن خراب بلقع)[٢]، ومثلها قوله عن كتب إحدى المدارس: (وأودعها كتبًا قيمة تفرقت أيدي سبأ)[٣]

وقد يُسهب قليلًا فيصف حال إحدى المدارس الوقفيّة قائلًا: (وهي اليوم في حالة خراب أو ما يقرب منه، تزعزعت بعض أركانها بمدافع الفرنسيين سنة (١٩٤١م)[٤]، ومثله كذلك وصفه مدرسة أخرى بأنها (اندرست ولم يبق منها سوى قبتين عظيمتين أعلاهما متهدم وجدرانها حجر نحيت)[٥].

ويقول عن مدرسة وقفيّة أخرى: (إنها من المدارس التي بقيت إلا أن داخلها متهدم ومجموعها مختلس)[٦]، أو قوله عن مدرسة أخرى (ليس فيها اليوم سوى ثلاث حجر صغيرة مشرفة على الخراب)[٧]، وأنكى تلك العبارات قوله: (إن هذه المدرسة قد جعلت في أواخر القرن الماضي حانة تباع فيها الخمور)[٨].

أما حين حديثه عن فساد النظار وكونهم أحد الأسباب الرئيسة في اندثار الكثير من الأوقاف فقد وصفهم بأشنع العبارات، ومنها قوله عن ناظر إحدى المدارس: (إنه ابتلعها وأوقافها كما ابتلع غيرها المتولون عليها)[٩].

وقوله عن مدرسة أخرى وخزانة كتبها (إنها الآن خراب أكل النظار عليها أوقافها واستباحوا أخذ خزانة كتبها المهمة)[١٠]، وفي وصف آخر شنّع على الناظر وذريته قائلًا: (كان الناظر قد سرق جانبًا عظيمًا منها لا تزال عند أبنائه ومنها ما في

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٨٨.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٤٨.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١١٤.
(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٨٩.
(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٨٩.
(٦) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٩٤.
(٧) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٤٢.
(٨) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٩٢.
(٩) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٩٧.
(١٠) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٩٧.

الظاهرية الجزء الأول أو الثاني والتتمة أو الأول في دار السارق)[١]، ومثلها قوله عن بعضهم: (ولكن الجهل قضى على تلك المدارس وأكل المتولون أوقافها، فخربت وتغيرت معالمها)[٢]، وغير ذلك كثير.

ويختم حديثه عن النُظار بعبارة قاسية يقول فيها عن نُظار إحدى المدارس: (وعبث المتولين عليها وإخراجها عما وضعت له من عمل الخير بصنع أولئك الذين يعدون أنفسهم في جملة حماة هذا المجتمع وهم أعدى عداته)[٣]. وأخيرًا يصف هؤلاء المعتدين على الأوقاف بقوله: (وكم من وقف يستمتع به النظار عليه يصرفون ما وقف على الخير في سبيل شهواتهم دون محاسب من ذممهم ولا رقيب من أصحاب السلطان)[٤]، ثمّ يتمنى عقاب هؤلاء النُظار الفاسدين بقوله: (ولو نفذ حكم الشرع في المختلسين والغاصبين لما ذهبت كل هذه المدارس مع أمس الدابر)[٥].

ويصف حالات وقفية بشكل جماعي تعميمي مثل قوله: (وفي طرابلس مدارس وزوايا وخوانق أخرى لا يعلم اسم بانيها ولا زمن بنائها وبعضها مهجور مقفر وآخر متداع)[٦]، وكذلك وصفه للمدارس الطبية في دمشق بتعميمه في الحكم بقوله: (إن المدارس الطبية بدمشق قد دثرت ودثرت أسماؤها)[٧]، وتبعًا لها الحديث عن البيمارستانات بقوله عنها: (صارت حجراته تلالًا)[٨].

وقد حاولت أن أجمع شتات تلك الأوقاف التي اندثرت والمآل الذي انتهت إليه في محاور رئيسية سيأتي ذكرها وذكر شواهها في الفقرة الآتية بإذن الله.

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٩٩.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٦٧.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٦٧.
(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٦٧.
(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٩٦.
(٦) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٢٧.
(٧) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٠٢.
(٨) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٦٠.

٣ ـ مآلات الأوقاف المندثرة:

من خلال تتبع ما آلت إليه الأوقاف المندثرة التي ذكرها (مُحَمَّد كرد عليّ) في كتابه (خطط الشام) يمكننا تصنيف مسارات المآلات إلى عدد من النهايات المؤلمة، وسأذكرها في محاور رئيسة، مع بعض الشواهد، ويمكن تصنيفها إلى خمسة أقسام على النحو الآتي:

١. **أوقاف لا يُعرف حالها الآن أو مآلها.**
٢. **أوقاف انتهت إلى دور سكنيّة أو مخازن لعامة الناس.**
٣. **أوقاف حوّلت إلى مرافق عامة من خلال الدولة.**
٤. **أوقاف تحوّلت إلى كيان وقفي جديد أو ألحقت بأوقاف أخرى.**
٥. **أوقاف خربت أو احترقت وصارت أنقاضًا.**
٦. **أوقاف تحوّلت إلى مقابر أو مزارات قبوريّة.**

وتفصيلها وشواهدها على النحو الآتي:

١) أوقاف لا يعرف حالها الآن أو مآلها:

هناك كثير من الأوقاف التي رصدها كتاب الخطط، انتهت إلى خانة المجهولية في خط الزمن التاريخي لعالم الأوقاف، فهناك مدارس، وأربطة، بل حتى مساجد زالت بالكلية، ولا يُعرف لها أثر، ولم يعد بالإمكان التعرف على مكانها، إلا بالذكر المتواتر أنه كانت هناك مدرسة كذا في حارة كذا أو زقاق كذا أو رباط في المكان الفلاني، فمن الحوادث الغريبة اندثار مجموعة كثيرة من المساجد وتكاد تكون في زمن واحد، وظروف متشابهة، كما في ذهاب عمران بعض المدن أو البلدات، فيؤكد المؤلف أن «المدن القديمة كانت غاصة بالجوامع مثل بلدة قيسارية وأرسوف، فذهبت بذهاب عمرانها»[(١)]، كذلك يذكر أنه كان في « كل قرية من قرى دمشق مسجد أو مساجد جامعة بحسب ضخامة القرية، وعشرات من هذه القرى خربت برمتها في القرون الأخيرة، فذهبت معها

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٥٧.

الجوامع. ومن القرى التي ذهبت وذهب اسمها ورسمها: راوية، وفذايا، والمصيصة، وبيت لهيا، وبيت أبيات، وقينية، وعالية، وعويلية، والنيرب، والربوة»[١].

وفي تفصيل أكثر يذكر (مُحَمَّد كرد عليّ) أنه كان في قرية النيرب «تسعة مساجد، والآن ليس فيها أثر لمسجد ولا لقرية»[٢]. والسبب هو خراب القرى وبعض البلدات مما أدى إلى اندثار ما بها من مدارس وأربطة وأي مظاهر وقفيّة أخرى، ومن ذلك على سبيل المثال مدرسة (البهائية) التي «ليس لها أثر اليوم»[٣]، وغيرها ولا شك كثير.

وأورد كذلك من مثل هذا المظاهر الاندثارية الجماعية في حادثة تاريخية، فيذكر (مُحَمَّد كرد عليّ) أن السلطان عبدالحميد الثاني[٤] زين له بعض مستشاريه «أن يبني جوامع ومساجد في جبال النصيرية وجبل الدروز عسى أن يثوب أهلها إلى مذهب أهل السنة والجماعة، وبنيت عدة جوامع، منها أربعون جامعًا في جبال العلويين على أمل أن يعود النصيرية والدروز إلى التسنن، فأصبح بعضهم يصلون شبه مكرهين، فلما آنسوا ضعف الحكومة بعد مدة قليلة أتى جهلاء النصيريين والدروز على ما بني من المساجد الجديدة ودمروها عن آخرها ودنسوا كرامتها بما لا يليق»[٥][٦].

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٦٥.

(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٦٥.

(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٧٢.

(٤) السلطان عبدالحميد الثاني من أواخر السلاطين العثمانيين، تولى السلطة عام (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) واستمر حكمه قرابة اثنين وثلاثين عامًا، وخُلع من العرش عام (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)، واتصف حكمه ببذل جهود في نشر التعليم في تركيا تحديدًا، وعدد من الإصلاحات، وفي عهده كان خط سكة حديد الحجاز، انظر كتاب: السلطان عبدالحميد الثاني: مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية، سيف الله آرباجي، دار النيل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٥٨.

(٦) كانت جهود صلاح الدين الأيوبي في عمل مشابه أكثر حنكة وأبعد نظرًا، حيث عمل على إضعاف المذهب الشيعي، وإحياء المذهب السنّي فقهًا وعقيدة في مصر وبلاد الشام، بإنشاء المدارس الضخمة التي درّست المذهب السنّي، وكذلك شُيّدت الجوامع الكثيرة، وهذه الأمكنة كان يُعقد فيها حلقات دروس في الفقه ومختلف العلوم الشرعية، وقد نجح حقًا، ولم يكن بالاستكثار من المساجد والجوامع فقط، فالمدارس والتعليم هي أساس التغيير. انظر: جهود صلاح الدين الأيوبي في إحياء المذهب السنّي في مصر والشام (٥٦٤-٥٨٩هـ/١١٦٩-١١٧٢م)، محمد الرحيّل غرايبة، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات (السلسلة أ: العلوم الإنسانية والاجتماعية) جامعة مؤتة، الأردن م١٠، عدد ٣، ١٩٩٥م/١٤١٥م.

أما دور الحديث والمدارس الوقفيــة التي اندثرت ويجهل حالها ومآلها، وأصبحت لا تعرف إلا بالاســم فقط، أما موضعها وحالها فقد غيبتها الأيام أو أســباب اندثاريه أخرى سواء أكانت بشرية أم طبيعية، فمن دور الحديث التي لم يبق لها أثر (الحمصيّة)، و(الدوادارية)، ومن المدارس التي لم يبق لها أثر المدرســة «الحلبية بمحلة الســبعة طوالع، وهي خلــف دار الكتــب الظاهرية أو المدرســة الظاهرية مجهــول حالها»[١]، ومدرســة (الخليلية)، و(الركنية الجوانية)، و(الشومانية)، و(الصلاحي)، و(التقطائية)، و(الطبرية)، و(الظاهرية البرانية).

أما الزوايا والأربطة والخوانــق التي جُهلت تمامًا ولا يُعرف لهــا مكان الآن إلا بالذكر فقط، فمنها (الأسدية)، و(الإسكافية)، و(الحسامية الشبلية)، و(الروزنهارية)، و(القصاعية)، أما الأربطة التي لا تعرف الآن (رباط البياني)، ومن الزوايا (الأرموية الشرفية)، و(الحصنية).

أما مدينة حلب فيذكر (مُحَمَّد كــرد عليّ) أن في «حلب خانقاهات ومدارس وزوايا كثيرة اندثر معظمها، ويستشــهد بما جاء في ترجمة مظفر الدين صاحب إربل أنه بنى أربع خانقاهات للزمنى والعميان ودارا للأرامل ودارا للأيتام ودارا للملاقيط وخانقاهين للصوفية»[٢] وكلها اندثرت مع الدواثر، ولم يُعدُّ لها ذكر إلا بالاسم.

أما المكتبات وخزائن الكتب، فمنها (خزانة الصوفية)، وكانت موجودة في «جامع حلب، ووقعت فتنة في بعض أيام عاشوراء بين أهل السنة والشيعة ونهبت خزانة الكتب، ولم يبق في خزانة الكتب إلا قليل.. وقد ظلت هذه الخزانة في حلب عامرة إلى القرن السابع وهي مُسبلة على المطالعة»[٣]. ومن الخزائن المشهورة التي بُعثرت (خزانة قبة صحن الجامع الأموي).

ويحكــي (مُحَمَّد كرد عليّ) عن ذهــاب خزانة كتب كاملة بهــا الاف الكتب، كانت موجودة في أحد الجوامع وهو «جامع الحيات أو جامع الدهشة الذي بناه الملك المؤيد

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٧٧.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٤٨.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٨٦.

وبنى لحرمه من جهة الشرق شباكين كبيرين بينهما عمود كبير من الرخام على صورة أفاعي ملتفة؛ ولهذا يسمى جامع الحيات. وعمل له من الغرب شباكين كما في جهة الشرق، غير أنهما هُدِما وأدخلا في البستان المجاور له. وذهبت خزانة الكتب الموقوفة، وكان فيها سبعة آلاف مجلد»[١]

ثمّ كانت المصيبة الأولى العظمى كما يصفها (مُحَمَّد كرد عليّ) التي أصابت الكتب الوقفية في الشام كانت على عهد الصليبيين، «والمصيبة الثانية ما حمله منها التتر في نوبة هولاكو وما أحرق في مدارس دمشق وجوامعها من أمهاتها، فان النار ظلت تحرق دور دمشق ومدارسها وجوامعها في الفتنة التيمورية ثلاثة أيام، فذهب في هذين الحريقين وغيرهما كتب المدرسة الضيائية والمدرسة العادلية وغيرهما من المدارس»[٢].

وهنا لفته مهمة كما يذكر (مُحَمَّد كرد عليّ) وهي أن «عناية الملوك بخزائن الكتب قد قلّت، لما كثرت المدارس اكتفاء بخزائن كتب المدارس التي أثبتوها من حيث إنها بذلك أمسّ ولم تكد تخلو مدرسة من المدارس في الشام من خزانة كتب»[٣]، ويؤكد مرة أخرى بقوله: «وقد جاء زمن على دمشق (من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر) وكل مدرسة من مدارسها الكثيرة لا تخلو من خزانة وافية»[٤]. ومؤدى ذلك أن كل مدرسة تندرس ويجهل حالها يكون تبعًا لذلك ذهاب خزانة كتبها الموقوفة عليها واندراسها، ومجهولية حال تلك الكتب كذلك.

٢) أوقاف انتهت إلى دور سكنيّة أو مخازن لعامة الناس:

الكثير من الأوقاف التي يمكن عدُّها من الأوقاف المندثرة هي في حقيقة الأمر أوقاف تحولت مع الزمن وعواديه إلى أن اتخذها بعض أفراد المجتمع سكنًا

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٦١.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٩٢.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٨٦.
(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٨٩.

لهـم أو مخازن يتجرون بها وفيها، سـواء أكانت في عين الوقـف، أم أُعيد بناؤها واستغلت في السـكن، وهذا يكثر في المدارس الوقفية بحكم أن تصميمها يساعد على ذلك لكثرة غرفها وإمكان تحوّلها إلى سكن بسهولة متى غابت عين الرقيب، وقلَّ الخوف من الله ﷻ.

ومن هـذه الحـالات التي يمكـن عدُّها فـي حكم الأوقـاف المندثرة: مدرسـة (السنجارية) التي «استحالت دارًا مسكونة، ولم يبق غير بابها، وعليه وقفها»[١].

والأغرب من ذلك ما حدث لمدرسـة (الكرّوسية) حيث يذكر (مُحَمَّد كرد عليّ) أنه «كان فيها ثلاثة قبور وجعلت دورًا»[٢]. وكذلك مدرسة (الدولعية) فقد كانت هذه المدرسة عامرة، ولكنها اختلست وجعلت دورًا وفي إحدى الدور قبر مدفون فيه واقف المدرسة»[٣].

والأمر يتكرر في مدرسـة (الشـامية الجوانية) وهي « قبلي البيمارستان النوري، أنشأتها سـت الشـام بنت نجم الدين أيوب بن شادي المتوفاة سـنة (٦١٦هـ).. وبها قبرها وقبر أخيها وقبر زوجها، وقد خربت ولم يبق فيها سوى بابها وواجهتها الحجرية واتخذت دارًا»[٤]. ومن أضرابها مدرسـة (الخاتونية) «واقفتها أغل خاتون بنت شـمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية، وهي اليوم دار سكنٍ فيها قبر السيدة خاتون القازانية البغدادية»[٥].

وطال الأمر الخانقـات كذلك، فهناك (خانقاه ابن التنبي) التي «أنشـأها الأمير عبدالقاهر بن عيسـى المعروف بابن التنبي ووقفها سنة (٦٣٩هـ)، والآن صارت دارين وتحتهما في حجرة قبر الواقـف»[٦]. وكذلك يوجد خانقاه آخر ذكره المؤلف بالوصف

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٧٠.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٧٣.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٧٨.
(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٧٩.
(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١١٨.
(٦) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٤١.

ولم يحدد له اسم، وهو «خانقاه تجاه المتقدمة، ولا يعلم لمن تنسب، وفيها قبر، والآن تحوّل جميع ذلك إلى دور مسكونة»[١].

وهذا أمر مستغرب حقًا؛ فقد تجاوز الاعتداء على حرمة الوقف إلى الاعتداء على حرمة الأموات؛ فالقبور فيها، ومع ذلك أُتخذت دورًا للسكنى.

ومما يلفت الانتباه هنا أن بعض هذه المدارس التي تحولت إلى دور ومساكن أصبحت مستوطنة من عوائل شامية معروفة، فكيف تحصلوا عليها وتملكوها؟، ومن ذلك مدرسة (الجاروخية) «داخل بابي الفرج والفراديس شمالي الجامع الأموي الموقوفة سنة (٥٩٠هـ) وهي دار بني الكيلاني اليوم»[٢]. وكذلك مدرسة (الطيبة) «وهي الآن دار لبني العظمة وبني كيوان»[٣]. ومثلها مدرسة (القاهرية) بالصالحية «وهي مساكن ولم يبرح اسمها معروفًا بالقاهرية وهي أسرة اسمها بنو القاهرية، وهي الآن دار بني الحشاش»[٤]. ومنها مدرسة (الربيعية) وهي «غربي البيمارستان النوري، وكان بها أيضًا صيدلية منظمة أنشأها عماد الدين محمد بن عباس الربعي المتوفى سنة (٦٨٦هـ).. وجرى تجديدها في سنة (٧٤٩هـ) بعد أن صارت تل تراب، وجعلها لتأديب الأطفال ثم جعلت دار بني البكري»[٥].

ومن الأوقاف البديعة التي آلت إلى سكن لبعض الأسر ما كان موجودًا في حماة، ويُسمى «دار الفرح كانت وقفًا للأفراح، فمن أراد أن يتزوج مثلا يأخذها من متوليها، وكان فيها ٣٥ بيتًا، وهي اليوم بيوت السادة الكيلانية»[٦]

ومن الغرائب في هذا الباب ما حدث لمدرسة (النفيسية) التي يذكر عنا المؤلف أنه حدّثه الثقة «أنه رأى حجر بابها باقيًا بحاله وقد طمس بالطين حتى

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٤٣.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٧٧.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٨١.
(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٩٣.
(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٠١.
(٦) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٥٢.

لا يظهر أثرها وأصبحت دورًا»[١]، وفي هذا محاولة لطمس الحقيقة الوقفية، وكأنها مرحلة لإزالة هذا اللوحة بالكلية.

ومن الصور الغريبة في التعدي ما حصل لمدرسة (المقدمية الجوانية) التي أنشئت سنة (٥٧٥هـ)، وهي الآن «في حكم المفقود استُصفي قسم منها وجعل دورًا وداخلها غرف تؤجر وحرمها مخزن»[٢]. فلم يكتف المعتدي باتخاذها دارًا ليسكنها، بل أخذ يتاجر ببعض غرفها.

ومنها مدرسة (الباذرائية) التي «لا تزال أسوارها باقية إلا أنها سائرة نحو الخراب وقد اقتطع جانب منها وجعل دورًا»[٣]، وإن كان بداية تحولها إلى دور في جانب واحد منها الآن، لكنها واقع الحال يُنبئ أنها سائرة نحو الاستيلاء الكامل عليها لتتحول إلى دور سكنيّة وهو المتوقع أو أي شكل آخر من أشكل التحولات الاندثارية للأوقاف.

وهناك مدرستان كانتا تؤديان رسالتهما التعليمية إلى وقت قريب ثمّ طالتهما أيادي المختلسين وهما مدرسة «(العبدلية) مدرسة عبدالله باشا العظم، أسست سنة (١١٩٣هـ)، ومدرسة (الإسماعيلية) مدرسة إسماعيل باشا العظم، أسست سنة (١١٤١هـ) والطابق السفلي منها من بناء إسماعيل باشا العظم، والعلوي من بناء أسعد باشا العظم، ولكل منهما وقف خاص به، وكانت المدرستان من المدارس العامرة إلى عهد قريب، فأصبحتا مأوى للفقراء، وذهبت أوقافهما أو كادت»[٤].

وهناك مدارس طبيّة متخصصة وصلتها يد المعتدي، وحولتها إلى دور تسكن معطلة لوظيفتها الأساس، ومنها مدرسة (الدخوارية) «أنشأها مهذب الدين عبدالرحيم بن علي المعروف بالدخوار سنة (٦٢١هـ) وجعلها مدرسة يدرس فيها صناعة الطب، ووقف لها ضياعًا وعدة أماكن يستغل منها ما ينصرف في مصالحها.. وهي اليوم دور ولا يعلم زمن دمارها»[٥].

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٧٤.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٩٥.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٧٦.
(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٩٩.
(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ١٠١.

وهناك كثير من المدارس وصفها (مُحَمَّد كرد عليّ) بأنها أصبحت دورًا ومساكن في زمانه، ومنها: مدرسة (الفاضلية)، ومدرسة (الرواحية)، و(الصالحية)، و(الصارمية)، و(الناصرية الجوانية)، و(الأمينية)، و(الكريمية)، وغيرها كثير نتجاوز تعدادها لكثرتها.

وهناك من الخانقات والأربطة والزوايا تحولت كذلك إلى سكن ومأوى للغرباء أو الفقراء بعد أن طالتها يد الاختلاس والتعدي، ومن تلك: (خانقاه ضيفة خاتون)، و(زاوية البيلوني)، و(رباط كرد)، ولم تسلم كذلك البيمارستانات من يد التعدي، بعد تعطل وظائفها وتحول إلى مأوى للغرباء أو سكن للفقراء ومنها: (بيمارستان بني الدقاق)، و(بيمارستان نور الدين)، و(بيمارستان أرغون الكاملي) وكلها في حلب، و(المارستان النوري) في حماة وهو الآن -كما يذكر المؤلف- «شبيه بالمندرس يستعمله بعضهم للسكنى وذهبت أوقافه إلا قليلًا»[1].

وبكل حال تُعدُ هذه الصورة من اندثار الأوقاف وهو الاستيلاء على هذا الأوقاف وتحويلها إلى مساكن بواسطة عامة الناس هي الأظهر، وهو الشكل المتكرر في كثير من الأوقاف المندثرة، أيًا كان عين ذلك الوقف: مدرسة، أو رباط، أو خانقاه، أو زاوية.

ويؤكد هذا الرأي (الدكتور محمّد قاسم الشوم) الذي يقول: إنه خلال إعداد أطروحته للدكتوراه بعنوان (الوقف الإسلامي في لبنان)، قام بجولات ميدانية على عدد من القرى، والتقى بكثير من الناس، وكان يعرض عليهم وثائق يذكر أنه استخرجها من «سجلات الوثائق التاريخية أيام الحكم العثماني، المحفوظة في دمشق وإسطنبول، وأغرب ما في الأمر أن بعضهم أخذته الدهشة والاستغراب والتعجب! ووجه الاستغراب أن هذه العقارات آلت إليهم إما إرثًا، ولا يعرفون تاريخها، أو شراءً ولا يعلمون عن ماضيها شيئًا، وهذه الأراضي الآن مسجّلة في

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٦١.

الدوائر العقارية بأسماء مالكيها[١]. والأمر يتكرر في دراسة علميّة أخرى عن الأوقاف التاريخية في مدينة نابلس، فقد توصلت الدراسة إلى أن «أغلب الحجج الوقفية التي في أيدي أصحاب الأوقاف قد ضاعت، وذلك لقلة الوعي بالوقف، فأصبحت الأوقاف اليوم لا تعرف شروط وقفها الأصلية»[٢].

أما الأوقاف التي تحولت إلى مخازن يستغلها بعض الأفراد لممارسة التجارة فيها أو تأجيرها والاستفادة من قيمتها دون نظر واعتبار لحق الواقف واشتراطاته ألا يُبدل ذلك الوقف أو يُعتدى عليه، ومن هذه الأوقاف: المدرسة (الوجيهية) أوقفت سنة (٦٩٠هـ) ثم درست وأصبحت مخازن ودورًا،[٣]، وكذلك المدرسة (الشريفية) قبلي الجامع الأموي لم يعرف واقفها، درست وأصبحت حوانيت، ومثلها المدرسة (الشريفية) هي الآن حوانيت، وأغرب هذه التحولات ما مرت به المدرسة (الجردكية) حيث أوقفت في سنة (٦٠١هـ) «وكانت عامرة إلى آخر القرن الثامن، وفي أواخر القرن الثالث عشر كانت قهوة، ثم تحولت مكتبًا، ثم صارت دكانًا، ثم عمرتها دائرة المعارف مخزنًا واسعًا للنجارة»[٤].

أما الخوانق التي تحولت إلى مخازن (خانقاه البلاط)، «وهو أول خانقاه بنيت في حلب، سميت بذلك لأنها في سوق البلاط (الآن سوق الصابون) نشأت سنة (٥٠٩هـ) كانت موقوفة على الفقراء المتجردين دون المتأهلين بحلب، ثم هجرت واتخذت بيتًا، ثم إن الحكومة التركية اتخذت منها مخفرًا، ثم أجّرته دائرة الأوقاف مدة طويلة، فعمر مخزنًا للتجارة»[٥]

(١) كتمان الوقف واندثاره، محمّد قاسم الشوم، في المؤتمر الثاني للأوقاف بالمملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المحور الثالث، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م، ص ٥٤.

(٢) مباني الأوقاف الإسلامية وأثرها في استدامة الأنسجة الحضرية للمدن التاريخية/حالة دراسية: البلدة القديمة من مدينة نابلس، أمل شفيق مُحَمَّد العاصي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، نابلس، ٢٠١٠م/١٤٣٠هـ، ص ١٩٩.

(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٧١.

(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ١٠٨.

(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ١٤٠.

٣) أوقاف حولت إلى مرافق عامة من خلال الدولة:

وكما طالت أيادي آحاد الناس إلى اختلاس هذه الأوقاف والاستيلاء عليها، نجد أن بعض الحكومات المتعاقبة على بعض بلدان الشام قامت بالإجراء نفسه وإن تغيرت الطريقة أو المآل، فأباحت لنفسها التصرف في بعض الأوقاف التي لها مئات السنين، وحولتها إلى مرافق عامة للناس، وبعضها ضمّته إلى جهات حكومية، أو مؤسسات تعليمية تابعة للدولة.

ولعل من أخف تلك التحولات الاندثارية للأوقاف هو أن تحولها الجهة الرسمية الى مدرسة أو دارًا لطلب العلم، فعلى الأقل فيها شيء من وظيفة الوقف السابقة خاصة المدارس، ومن ذلك على سبيل المثال المدرسة (التنكزية) وهي دار قرآن وحديث، أنشأها نائب السلطنة تنكز سنة (٧٢٨هـ) وهي الآن مدرسة للصبيان سميت الهاشمية»[(١)]. وكذلك المدرسة (العمادية) هي الآن كتّاب للصبيان، وكذلك المدرسة (الصاحبة) بسفح قاسيون من شرق الصالحية جعلت اليوم مكتبًا ابتدائيًا للذكور. وكذلك المدرسة (الريحانية) موقوفة منذ العام (٥٦٥هـ) وهي كتّاب للذكور الان، ولا يزال على بابها حجر مكتوب عليه بخط جميل الأوقاف المرصدة لها[(٢)].

ومثلها المدرسة (الشامية البرانية) بمحلة العقيبة، «أنشأتها ست الشام بنت نجم الدين أيوب سنة (٦١٦هـ) وتعرف هذه المدرسة بالحسامية لأن ابنها حسام الدين دفن فيها كما أنها دفنت فيها. وهي اليوم مدرسة ابتدائية للأيتام تقوم بها جمعية الإسعاف الخيري»[(٣)].

وبالمثل قامت دائرة المعارف بتحويل المدرسة (الأتابكية) التي أنشأها الأتابك شهاب الدين طغرل عتيق الملك الظاهر سنة (٦٢٠هـ) باتخاذها مدرسة ابتدائية مكتوبًا على بابها اسم بانيها. ومثلها في الأيلولة المدرسة (الميمونية) عند باب الساهرة،

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٧٤.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٩٠.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٧٩.

وكانت كنيسة من بناء الروم، واقفها الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون القصري (٥٩٣هـ) حوّلت إلى مدرسة في عهد العثمانيين، وهي الآن مدرسة بنات للمعارف، وجعل اسمها (المأمونية)[١].

وهناك ثلاث مدارس أُلحقت بكلية روضة المعارف الوطنية، وهي المدرسة (الجاولية)، موقوفة سنة (٧٤٥هـ)[٢]، و(النصيبية)، و(المحدثية) الموقوفة منذ عام (٧٦٢هـ)[٣].

وهناك مدرستان تحوّلت إلى مدارس للبنات، وهي المدرسة (الدويدارية)، وتاريخ وقفها سنة (٦٩٦هـ) وفيها اليوم مدرسة البنات الإسلامية، وكذلك المدرسة (الباسطية) موقوفة سنة (٨٣٤هـ) لا تزال موجودة وفيها مدرسة البنات الإسلامية»[٤]. ويحمل (مُحَمَّد كرد عليّ) الحكومة جرأتها على الأوقاف في بلاد الشام، حيث يقول: «ومدارس الدولة إلى اليوم تقوم على أنقاض البيوت القديمة، أو بقايا الجوامع والمدارس.. فسائر المدارس الحديثة لا شأن للحكومة في إنشائها»[٥].

وللأيتام نصيب من هذه التحولات فهذه المدرسة (الشرابيشية) أصبحت مدرسة للأيتام، والمدرسة (الجوزية) في البزورية جعلتها جمعية الإسعاف الخيري مدرسة للأيتام»[٦].

ومن التحولات لبعض الأوقاف ما كان على المدرسة (الظاهرية الجوانية) الموقوفة سنة (٦٧٦هـ) وهي اليوم بيد المجمع العلمي العربي جعلت مخطوطاتها في القبة الظاهرية المعمولة حيطانها بالفسيفساء البديعة وقد أنشئت خزانة كتب منذ أواخر القرن الماضي[٧].

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٢٢.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١١٩.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٢١.
(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١١٩.
(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٠٠.
(٦) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٩٦.
(٧) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٨١.

والأمر يتكرر مع المستشفى النوري الذي «كان عامرًا إلى سنة (١٣١٧هـ) حيث قامت بلدية دمشق بإنشاء مستشفى للغرباء في الجانب الغربي من التكية السليمانية المطلة على المرج الأخضر، وجمعت له إعانات، وأخذ مبلغ من أوقاف المستشفى النوري. أما بناية المستشفى النوري فقد جعلت مدرسة، وواجهتها لا تزال بحالها وفيها بعض الحجر والنوافذ من البناء القديم، والغالب أن الأيام سطت على بقية البناء، فتغيرت معالمه»[١].

وكان للجامعة إسهام في التعدي على الأوقاف، فقد ضمّت إلى مبانيها (التكية السليمانية) المنسوبة للسلطان سليمان القانوني، ويصفها (مُحَمَّد كرد عليّ) بقوله: «وكان فيها من الأحجار والآلات والرخام الصافي والملوّن والصنائع والقباب والترصيص ما يحيّر الناظر ويسر الخاطر.. وقد استولت إدارة الجامعة السورية على جزء منها في العهد الأخير جعلته مخابر لمدرسة الطب، وهذه التكية من أجمل آثار العثمانيين، هندسها معمار سنان أشهر مهندس في دولة الترك»[٢] ومثلها (تكية السلطان سليم) بالصالحية الموقوفة سنة (٩٢٢هـ) وعليها أوقاف دارة، ولا يزال بعضها إلى الآن، وقد بقي الرسم من هذه التكية، وأضيفت إلى معاهد الجامعة السورية[٣].

ولم تسلم الجهات الشرعية من تناول نصيبها من ذلك الإرث الاندثاري للأوقاف؛ فنجد أن المدرسة (التنكزية) التي «أوقفها الأمير تنكز الناصري نائب الشام، سنة (٧٢٩هـ) وهي لا تزال عامرة.. قد أصبحت مقرًا للمحكمة الشرعية»[٤]. كذلك المدرسة (المنجكية) التي «تلاشت ثم عُمرت، ولا تزال معمورة إلى هذا العصر، أقام فيها المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى»[٥]. ومدرسة البيك، والصلاحية في مدينة نابلس، كانت محكمة شرعية، والآن تحولت مقهى»[٦].

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٥٩.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٣٣.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٣٨.
(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١١٧.
(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١١٨.
(٦) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٢٩.

وكان لإدارة الأوقاف نصيب من تلك الأيلولة الاندثارية للأوقاف في بلاد الشام، فهذه المدرسة (الأشرفية البرانية) تُسلمها إدارة الأوقاف إلى إدارة المجمع العلمي العربي ليجعل فيها خزانة كتب يختلف إليها أهل تلك المحلة، ولم يتم له ترميمها لقلة المال»[١]. ومثلها المدرسة (الجاولية) التي هدمتها دائرة الأوقاف وعمرت في مكانها عقارات للاستغلال[٢]. وكذلك المدرسة (العصرونية) الموقوفة منذ العام (٥٥٠هـ)، وقد كان لها بقية إلى سنة (١٣٤٣هـ) التي شرعت إدارة الأوقاف بإقامة دور للسكنى مكانها يضاف ريعها للأوقاف[٣].

أما الخانقاوات فقد تحول بعضها إلى مستشفيات، فإن (خانقاه الأمير علاء الدين طاي بغا) الموقوفة على الصوفية سنة (٥٥٠هـ) دخل في دار العدل ثم دثر وقام في محله المستشفى الوطني، وكذلك (خانقاه القديم) التي أنشأها نور الدين محمود بن زنكي سنة (٥٤٣هـ) خربت ودخلت في عمارة المستشفى الوطني[٤].

ومن الأوضاع التي آلت إليها بعض الأوقاف المعدودة في حكم المندثرة تحويلها إلى حدائق عامة، ومنها المدرسة (الناصرية)، «وكان بها رباط بسفح قاسيون، أنشأها الملك الناصر صلاح الدين يوسف سنة (٦٥٤هـ) أمست حديقة الآن وكانت أنقاضها ظاهرة الى عهد قريب»[٥]. ومثلها المدرسة (العزيزية) هدمها ضيا باشا والي سورية وجعلها حديقة[٦]. ومثلها مدرسة (الدماغية) عند جسر ثورة قرب معمل الغزل القديم، أصبحت اليوم حدائق. والمدرسة (المنجكية)، الموقوفة سنة (٧٧٦هـ) هي اليوم حدائق ولا أثر لها»[٧]. والمدرسة (الزنجارية)، الموقوفة سنة (٦٢٦هـ) هي اليوم حدائق»[٨]. ومثلها المدرسة (الأسدية)، داخلة الآن في حديقة الشرف وأنقاضها ماثلة للعيان.

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٧٢.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٠٨.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٠٣.
(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٤٠.
(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٧٤.
(٦) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٨٤.
(٧) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٩٥.
(٨) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٩٠.

وهناك من الأوقاف ما استحال إلى طرق وشوارع أو وُسِّعَتْ بها بعض الطرق على حساب هذه الأوقاف، ومن ذلك: المدرسة (القايمازية) أنشأها صارم الدين قايماز النجمي المتوفى سنة (٥٩٦هـ)، درست عندما جرى توسيع الطريق»[١]. ومدرسة (اليونسية) أنشأها الأمير الشرفي يونس سنة (٧٨٤هـ) هدمت وجعلت طريقًا في أيامنا»[٢].

لكن من المؤلم حقًا -وإن كان واقع هذه الأوقاف المندثرة كلّه مؤلمًا- هو بعض الصور الذي آلت إليه بعض الأوقاف، وبخاصة المدارس، ففي الصورة الجديدة لتحولها كل البعد عن العلم أو التعليم أو مقاصد الواقف حين أوقف وقفه، ومن ذلك المدرسة (الأباصيرية)، التي كانت في عهد الأتراك قسمًا من السجن[٣]. أو المدرسة (العزية) التي تحوّلت إلى محطة الترامواي الآن[٤]. والمدرسة (العزيزية البرانية) خارج دمشق تحولت إلى معمل للكهرباء وقد زال أثرها[٥]. و(الرباط المنصوري) كان سجنًا في عهد الأتراك[٦]. وآخرها المدرسة (المسمارية) داخل دمشق الموقوفة في القرن السادس جعلت الآن مخفرًا للشرطة[٧].

ولعل أشدها إيلامًا ما انتهت إليه المدرسة (الصلاحية) التي «أوقفها صلاح الدين على الشافعية سنة (٥٨٨هـ)؛ ففي الحرب العامة أخذها الترك، وجعلوها مدرسة للعلوم الدينية، فلما سقطت القدس في أيدي الحلفاء رجعت إلى المسيحيين كنيسة»[٨] وليس ببعيد عن تلك المأساة ما صارت اليه (زاوية الدركاه) «بجوار البيمارستان الصلاحي، واقفها الملك المظفر شهاب الدين غازي سنة (٦١٣هـ) قسم منها داخل في كنيسة الألمان (الدباغة)، والباقي خراب»[٩].

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٧٤.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ١٣٣.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ١٢٣.
(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ١٣٣.
(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٩٢.
(٦) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ١٤٩.
(٧) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٩٨.
(٨) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ١٢٠.
(٩) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ١٥٠.

٤) أوقاف تحولت إلى كيان وقفي جديد أو ألحقت بأوقاف أخرى:

على الرغم مما سبق ذكره من التعدي على بعض الأوقاف سواء من آحاد الناس أم من الأسر، أم من قبل بعض الحكومات، إلا أن هناك أوقافًا استمرت وإن كانت قد زالت منها عين الوقف الأساس، ولذا يمكن عدّها من الأوقاف المندثرة، ولكن قيض الله لها سبيلًا آخر للاستمرار في صورة وقف آخر سواء بالاندماج في وقف آخر أم بالتحول إلى شكل جديد من أشكال الأوقاف، كالمساجد أو المصليات أو الزوايا، ومن تلك الأوقاف: إحدى دور القرآن الكريم التي كانت في دمشق واسمها (الخيضرية)، الموقوفة سنة (٨٧٨هـ)، وعليها وعلى مسجد آخر أوقاف جمة، وقد بقي اليوم جزء صغير منها استحال إلى زاوية للشاذلية[١].

ومثلها دار القرآن المسماة (الدلامية)، أنشأها زين الدين دلامة بن عز الدين نصر الله البغدادي البصري، ووقفها سنة (٨٤٧هـ)، وهي الآن مصلى ومنزلان بالقرب من جامع كعكع[٢]. ومما تحوّل إلى مصلى مدرسة (الأتابكية) بالصالحية، أنشأتها أخت نور الدين أرسلان بن أتابك صاحب الموصل سنة (٦٤٠هـ)، وبها قبرها، وقد جعلت مصلى[٣]، وكذلك المدرسة (القلانسية) وبها «رباط ومنارة يمر في وسطها نهر يزيد، أوقفت سنة (٧٢٩هـ)، وكان في رباطه هذا دار حديث وبر وصدقة، وقد جعلت مسجدًا صغيرًا»[٤].

وبعض تلك الأوقاف التي استحالت الى شكل جديد أصبحت جامعًا كبيرًا، وليس مصلى صغيرًا، ومنها المدرسة (المارداني) الموقوفة سنة (٦١٠هـ)، استحالت إلى جامع عامر بالصلوات[٥]. ومثلها (المدرسة القرطائية) «أفخم مدارس طرابلس كلها، وهي ملاصقة للجامع الكبير من الجهة الشرقية، وقد طُمس اسم بانيها وزمن بنائها؛ لإخفاء

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٦٩.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٧٠.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٧٥.
(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٧٣.
(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٩٤.

أوقافها التي كانت محفورة على ظهر جدارها، وكان تاريخ بنائها سنة (٧٢٦هـ) وتقام فيها الصلوات وهي ملحقة بالجامع الكبير»[١] ومن أضرابها المدرسة (الشادبختية)، وقد كُتِبَ على بابها أنها موقوفة سنة (٥٨٩هـ)، وتعرف اليوم بجامع الشيخ معروف[٢].

وكذلك المآل الذي أصاب (خانقاه أحمد باشا) قبالة قلعة دمشق، وما زالت هذه الخانقاه عامرة ولكن ليست على صورتها الأساس التي أرادها الواقف، بل صارت جامعًا[٣]، وكذا المدرسة النورية) هي من دور الحديث الباقية، وأول دار أنشئت لهذا الغرض أنشأها نور الدين محمود بن زنكي، وهي الآن مسجد جامع»[٤]، وبعض تلك المدارس تحولت الى مرفق للجامع، كالمدرسة (العروية) في الصحن الشرقي من الجامع الأموي، أنشأها محمد بن عروة الموصلي ووقف عليها مكتبة عظيمة سنة (٦٢٠هـ)، ومحلها معروف، وهي مستودع للجامع»[٥].

أما الأوقاف التي تحولت إلى مساجد تُقام فيها كل الصلوات الخمس، المدرسة (الشعيبية) موقوفة عام (٥٤٥هـ) بالقرب من باب أنطاكية[٦]، وهناك جملة من الأربطة تتجاوز خمسة عشر رباطًا ذكرها (مُحَمَّد كرد عليّ)، وقال بعدها: «والغالب أن الرباطات كانت تستحيل في الأحايين جوامع أو مساجد أو مدارس كما شوهد ذلك في زماننا»[٧].

وهناك أوقاف دخلت في غيرها، منها المدرسة (الرشائية) «شمالي الجامع الأموي أوقفت سنة (٤٤٤هـ)، وقد درست الآن، وبنيت المدرسة الأخنائية مكانها، وبذا تكون قد زالت عينها وأدخلت في غيرها»[٨]، وكذلك (الزاوية الميمونية) بجوار باب الساهرة،

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٢٦.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١١٢.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٣٤.
(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٧٣.
(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٧٣.
(٦) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٠٤.
(٧) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٩٥.
(٨) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٣٦.

موقوفة عـام (٥٩٣هـ) دخلت في المدرسـة المأمونية[١]، ومثلها المدرسـة (الخاتونية البرانية) فقد خربت تلك المدرسة في أواخر حكم المماليك، فنقلت أنقاضها لتعمر بها مدرسة غيرها في باب الجابية[٢].

وهناك أوقاف تحولت إلى أشـكال جديدة مثل (الصبابية)، وهي دار قرآن وحديث ولم يبق لها أثر سوى سبيل الماء، وكذلك المدرسـة (التقوية) تقام بها الأذكار الآن باسـم خانقاه ولها مخصصات شـهرية من الحكومة[٣]. ومثلها المدرسـة (العذراوية) بحارة الغرباء، وهي باقية اتخذت دارًا يجتمع فيها النسـاء لسـماع الوعظ[٤]، وكذلك (المدرسة النورية) كانت قريبة من جامع نور الدين وبعد أن عفت آثارها جُددت وجعلت تكية. والتكية هي الرباط بالتركية[٥].

ويعلق (مُحَمَّد كرد عليّ) على هذه الظاهرة قائلًا: «وأكثر هذه المدارس من البناء الحجري الجيـد، وفيها يتجلى جمال الهندسـة العربية، وبعضها لـم يقو على عوادي الأيام، فتداعى في عصر واقفه، وبعضه مما سطا عليه أكلة الأوقاف فاضمحل بالطبيعة، لم تشـفع فيه متانة بنائه وإحكام بنيانه، وأكثره مما صبر علـى الأيام وبقي إلى الآن مثالًا ناطقًا بفضل البانين والواقفين لكنه تعطل عما كان وقف عليه»[٦].

٥) أوقاف خربت أو احترقت أو زالت وصارت أنقاض:

من الصور الاندثارية لبعض الأوقاف هو الخراب التام وتحولها إلى أنقاض، أو أراض خالية، سواء أكان بعامل الزمن، أم بسبب حريق، أم غيرها من الأسباب، كما سـنرى، وكل ذلك يمكن عدّه مقدمة لبداية الاندثار الكامـل، فمن المؤكد أنها لن تبقى متروكة على حالتها الخربة، فإن لـم تمتد لها يد الإصلاح من أي جهة كانت:

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ١٥٠.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٩٠.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٧٧.
(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٨٣.
(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ١٣٤.
(٦) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ١٢٣.

حكومية، أو خيرية، أو أهلية، فسيكون الطمع فيها محتملًا بدرجة كبيرة، ثم يحصل اندثارها حكمًا وواقعًا.

ومن الأوقاف التي خربت واندثرت بسبب الحرائق المدرسة (النورية الصغرى)، وكذلك المدرسة (العادلية الكبرى) «بدأ بإنشائها نور الدين محمود بن زنكي ولم تتم، ثم عمل فيها الملك العادل سيف الدين ولم تتم، ثم ولده الملك المعظم، ووقف عليها الأوقاف، ونسبها لوالده سنة (٦١٢هـ)، وقد حرقت هذه المدرسة مرتين: الأولى في فتنة غازان التتري سنة (٦٩٩هـ)، والثانية سنة (٧٧٨هـ)»[١]. ومنها المدرسة (العادلية الصغرى) وقد حرقت مؤخرًا، وبقيت جدرانها قائمة[٢]، والمدرسة (العصرونية) حرقت في الحريق الكبير سنة (١٣٢٨هـ) ولم تعد إلى ما كانت عليه، وبقي اسم السوق منسوبًا اليها[٣]. وكذلك المدرسة (الغواصية) أنشئت في الميدان، حرقت في الثورة الأخيرة[٤].

وهناك من الأوقاف ما تحوّل إلى خراب وأمسى يبابًا بلقعًا، منها المدرسة (الحمصية) أوقفت في سنة (٧٢٦هـ). خربت ولم يبق منها إلا قطعة خربة[٥]، ومنها المدرسة (الظبيانية)، ومعها المدرسة (القيمرية البرانية) أوقفها الواقف سنة (٦٥٣هـ) خربت وأنقاضها إلى اليوم ظاهرة[٦]، وكذلك المدرسة (الكلاسية) متصلة بالجامع الأموي من شماله ولها باب إليه، أنشأها واقفها سنة (٥٥٥هـ) وهي أطلال، ومنها المدرسة (الإقبالية) وقد زالت ولا يعرف غير أطلالها وحجر بابها. ومن أضرابها المدرسة (البدرية)، والمدرسة (الجلالية)، والمدرسة (الميطورية)، والمدرسة (العالمة)، والمدرسة (المرادية)، والمدرسة (العزية)، والمدرسة (العمرية الشيخية)

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٨١.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٨٣.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٨٤.
(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ١٤٠.
(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٧٧.
(٦) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص ٨١.

كلها خراب بلقع، ويذكر (مُحَمَّد كرد عليّ) أن في طرابلس مدارس وزوايا وخوانق أخرى لا يعلم اسم بانيها ولا زمن بنائها وبعضها مهجور مقفر وآخر متداع[١].

وهناك من الأوقاف ما بقي منها أثار وأطلال تحكي ماضيها المجيد، منها المدرسة (الضيائية المحاسنية) بسفح قاسيون، بقي منها أربع نوافذ وجدار[٢]، والمدرسة (الجقمقية) شمالي الجامع الأموي احترقت في فتنة تيمور، فجدد بنيانها، وهي اليوم في حالة خراب أو ما يقرب منه، تزعزعت بعض أركانها بمدافع الفرنسيين سنة (١٩٤١م)[٣]، وكذا المدرسة (الصاحبية) أنشأها القاضي بهاء الدين يوسف المعروف بابن شداد، ثم عمر في جوارها دارًا للحديث، ولم يبق منها ولا من دار الحديث سوى حجر مكتوب عليه، وقد كانتا عامرتين في القرن العاشر. ومنها المدرسة (الرواحية) لم يبق منها سوى باب ذي أحجار ثلاثة سود، وباب مسدود يعلوه حجرة عظيمة[٤]، والمدرسة (الصاحبية)» وهي باقية إلا أنها متوهنة وفيها نقوش وآثار تعد من النفائس[٥].

ومن الخانقاوات التي شواهدها باقية (خانقاه الأندلسية) وهذه الخانقاه الآن عمد قائمة ليس إلا، ومثلها (خانقاه الكاملية) ليس فيها اليوم سوى ثلاث حجرات صغيرة مشرفة على الخراب، وكذلك (الخانقاه الصلاحي) وهو من ربط فلسطين في قرية حطين، من إنشاء السلطان صلاح الدين، ولم يبق منه الآن إلا مطبخه وأنقاضه[٦]، وكذلك (الزاوية الحنفية) بجوار المسجد الأقصى خلف المنبر وقفها صلاح الدين سنة (٥٨٧هـ) وهي الآن خراب بلقع.

ومن الأوقاف ما تحوّل إلى أرض خالية، ومن المؤكد أنها لن تبقي خالية دون أن تمتد اليها اليد، ومن تلك الأوقاف المدرسة (الأتابكية) أنشأها الواقف سنة (٦١٨هـ)،

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٢٧.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٩٧.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٨٩.
(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٠٤.
(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١١٠.
(٦) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٥٢.

وخربت في فتنة التتر ثم رممت وبقيت عامرة إلى القرن العاشر ثم خربت، والآن لا يعرف إلا مكانهـا الذي أصبح عرصة خالية شـرقي جامع العادلية[١]. والمدرسـة (الحاجبية)، «تداعت فأخذت أنقاضها منذ نحو سبعين سنة لتبليط الطريق، وهي أمام جامع الحاجب بالجركسية، وأصبحت الآن عرصة محاطة بجدار وحوض مائها لا يزال موجودًا»[٢].

٦) أوقاف تحولت إلى مقابر أو مزارات قبوريّة:

هناك مجموعة مـن الأوقاف اصبحت قبورًا ومدافن لواقفيهـا، أو حوّلها الناس إلى مزارات قبورية يزورونها وقد يتبركون بها[٣]، ومن تلك: المدرسة (الصابونية) أنشئت سنة (٨٦٨هـ) وبنى أيضا تجاهها بشرق مكتب لأيتام عشرة بشيخ لهم يقرئهم القرآن العظيم، ولا تزال هذه الدار باقية إلى اليوم، وهي مدفن السـادة بني البكري[٤]، ومنها المدرسة (السامريّة) وبها خانقاه وهي موجودة اليوم ولكن لم يبق منها غير المدفن، ويقال للحي زقاق السلمي[٥]، وكذلك المدرسة (القليجية) وكانت تعرف في القرن الحادي عشر بمزار (سيدي سيف الدين)، ويطل على تربته شباكان على رأس كل واحد منهما حجر فيه أسطر منقوشـة[٦]، ومثلها المدرسـة (المجاهدية البرانية) بها قبر واقفها، وكذلك المدرسـة (المنكلائية) وإلى اليوم لا يزال في تلك البقعة مقام للشيخ عبدالله المنكلائي[٧].

ومن تلك الأوقاف التي انتهت إلى قبورٍ المدرسـةُ (الشـبلية البرانية الحسامية) بسفح قاسـيون، موقوفة سـنة (٦٢٦هـ) وقد دفن بها الواقف، ودفن فيها كذلك الملك المعظم وولده، ولهما شـهرة في مكانهما وأوقاف كثيرة، وإلـى اليوم لا تزال القبور

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٠٧.

(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٩٠.

(٣) الحديـث هنا عن مآلها، وليس إقرار تلك الممارسـات، فحكم الشـرع واضح في مسـألة التبـرك بالقبور أو أصحابها، ولزيارة القبور التي أمر بها الشرع آداب وأحكام، لا تتوافر في الزيارات البدعية أو الشركيّة لتلك القبور في وقتنا الحاضر، ونسأل الله أن يهدي ضال المسلمين إلى تحقيق العبودية الخالصة لله ﷻ.

(٤) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٧٠.

(٥) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٧٢.

(٦) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٨٥.

(٧) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٨٧.

ظاهرة للعيان[1]، ومثلها المدرسة (المعظمية) بالصالحية بسفح قاسيون الغربي وهي الان مدفن. وكذلك المدرسة (السيفية) وهي اليوم قبة قديمة سقفها خرب فيها قبر الواقف، ويشبهها في ذلك المدرسة (الهروية) أنشأها الملك الظاهر غازي، ولم يبق منها سوى قبره في قبة داخل كرم فستق[2].

وهناك ما تحوّل إلى مدافن عامة كما هو الحال في مدرسة (الفردوس) التي أنشأتها الملكة ضيفة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، وجعلتها تربة ومدرسة وربطًا، ولا تزال أسوارها باقية وجامعها عامرًا، لكنها جعلت مدفنًا للفلاحين النازلين في جوارها[3].

رابعًا: الأسباب التي أدت إلى اندثار الأوقاف

يمكن رصد عدد من الأسباب التي يرى (مُحَمَّد كرد عليّ) أنها أدت إلى اندثار الأوقاف في بلاد الشام، وهي مُستنبطة من خلال كتاباته في كتابه (خطط الشام) وتعليقاته المذيلة في وصف حال بعض الأوقاف المندثرة، ويمكن إيجازها بالأسباب الآتية:

١) فساد النظّار أو هلاكهم دون وجود من يخلفهم، أو تلاعبهم بوثائق الوقف، أو السعي للاستيلاء عليه، وقد شدد (مُحَمَّد كرد عليّ) على هذا السبب، ويكاد يراه السبب الأول والرئيس لاندثار أي وقف، فعلى الرغم من التحرزات الكثيرة التي ذكرها الفقهاء في شأن النظار، وشروط توليتهم، وعلى الرغم من تحوّطات الواقفين في اختيار النظار وتخويفهم بالله في وثائقهم الوقفية فلا تكاد تجد وثيقة وقفية تخلو من قول الله ﷻ: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨١]، إلا أن بعض الأوقاف لم تسلم من ظلم بعض النظّار وخيانة بعضهم، ثمّ تحميل تبعة تلك الخيانة لأبنائهم من بعدهم بالتوارث وتضمين تعاقبهم في النظارة؛ لكيلا يخرج

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٩١.

(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٠٥.

(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٠٦.

الوقف من سيطرتهم، لذلك لا عجب أن وصفهم بأشنع العبارات، ثمّ يتمنى عقاب هؤلاء النُظار الفاسدين بقوله: (ولو نفذ حكم الشرع في المختلسين والغاصبين لما ذهبت كل هذه المدارس مع أمس الدابر)[١].

٢) تدخّل المستعمر الفرنسي، وذلك بالإشراف على أوقاف المسلمين في بلاد الشام دون أوقاف اليهود والنصارى[٢]، ففي الأصقاع المشمولة بالانتداب الفرنسي أنشئت المراقبة العامة على شكل مبتدع بين الأشكال الحكومية، ووضع غريب غير معهود بين الأوضاع الإدارية، ففصلت بذلك دواوين الأوقاف الإسلامية عن الحكومات المسلمة الأهلية، ووصلتها مباشرة بالمفوضية العليا، وجعلت لها مستشارًا غير مسلم يتصرف في شؤونها الإدارية والمالية بسلطة واسعة، فإنه لا فرق بين هذا التدخّل وبين التدخّل بشؤون الصلاة والزكاة والصيام والحج، لأن الولاية على الأوقاف الخيرية ولا سيما الدينية المحضة هي من القضايا الشرعية الصرفة، فلا فرق والحال هذه في الحظر بين إمامة النصراني المسلمين بالصلاة، وبين ولايته على أوقاف مساجدهم ومعابدهم.

٣) التأجير طويل الأجل، أو ما يسمّى (التحكير) وهو عقد إجارة لمدة طويلة يُقصد به إبقاء الأرض الموقوفة في يد المستأجر بقصد الاستفادة منها لأي غرض، لقاء أن يدفع المستأجر أجرًا محدودًا يتفق عليه[٣]. ويُسمى في الديار الشامية (المرصد)، أو (التحكر)،

---

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٩٦.

(٢) هذا ما يذهب إليه كذلك المفكر اللبناني: شكيب أرسلان وهو من معاصري (مُحَمَّد كرد عليّ)، حيث يقول: « ومن بين جميع الحكومات المستعمرة تأتي الحكومة الفرنسية فلم يعهد حكومة استطابت طعم أوقاف المسلمين مثلها.. ولقد تمكنت منها عادة التسلط على أوقاف المسلمين في المغرب إلى حد أنها حاولت مثل ذلك في المشرق». انظر: كتاب رحلة الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، شكيب أرسلان، حررها وقدم لها: أيمن حجازي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ص١٠٣.

(٣) ذكر الفقهاء مفاسد الإجارة الطويلة، لذا لا عجب أن نجد من الفقهاء مَنْ حدّد مدة الإيجار بسنوات محددة، بعضهم يفتي ببطلان الإجارة الطويلة للوقف، مع التفريق بين ما كان أراض زراعية وبين غيرها. وهناك من يرى أن الفقهاء أقروا نظرية الحكر على مضض نظرًا إلى خطورته على الأوقاف وصعوبة ضبطه. ومؤخرًا بدأت عدد من الدول بسنّ نظام يحدد مدة التحكير.

انظر: الأوقاف فقهًا واقتصادًا، رفيق يونس المصري، دار المكتبي، دمشق، ١٤٢٠/٢٠٠٠. وكذلك: الاندثار القسري للأوقاف: المظاهر ـ الأسباب ـ العلاج، عبدالله بن ناصر السدحان، المؤتمر الثالث للأوقاف، الجامعة الإسلامية، =

أو (الإجارتين) ويرى (مُحَمَّد كرد عليّ) أن مرمى هذا المخرج هو تحرير العقارات الموقوفة بالجملة بمنح التصرف بها بيعًا وشراءً مراعاة للمصلحة الاقتصادية[1]. ولكن التوسّع الفاحش في تلك المخارج نجم عنها اندثار الأوقاف وانهيار معالمها، لأنه فسح مجالًا لابتداع الحيل التي مهدت السبل لاختلاس الأوقاف وطمس معالمها مع تطاول الزمن، فطفق الناس يتملكون العقارات الموقوفة تملكًا محضًا، وإن ظلت عليه شية من مسحة الوقف باسم الحكر ونحوه من الحيل التي جرأت الظلمة فيما بعد على اختلاس غيرها من الأوقاف. ولا شك في أن تطاول الزمن على استئجار وقفٍ من الأوقاف قد ينسى معه الناس ومن يتوارث هذا الوقف المؤجر مدة طويلة أنه وقفٌ مما يؤدي إلى ضياعه ومن ثَمَ اندثاره بالكلية، ويقرر (مُحَمَّد كرد عليّ) أن «أرض الزراعة الموقوفة في الشام ذات غموض عظيم في زماننا؛ لاختلاط الموقوفة بغيرها، واختلاط الموقوفة وقفًا صحيحًا لتملك رقبتها بالموقوفة وقفًا غير صحيح لعدم تملك الرقبة، وكذلك لاختلاط ذات الوقف الأهلي بذات الوقف الخيري فضلًا عن ضياع وقف أغلبها واندثاره بتقادم العهد»[2].

٤) ضياع الوثائق أو فقدانها، فقد كانت الحجج الوقفية تكتب على الورق أو الجلود أو الخشب أو الحجر، إلا أنه خوفًا من تلفها أو ضياعها، كانت تجدد كلما مضى عليها مدة من الزمن، وبعض الواقفين يشترط أن يقوم ناظر الوقف بتعهد كتابة الوقف كل عشر سنين بالإثبات والتنفيذ لدى قاضي القضاة[3]، وهناك من يثبت الوقفية في

= المدينة المنورة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م. وكذلك: الأوقاف والسياسة في مصر، إبراهيم البيومي غانم، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٥، ص١٠٤.

(٢) خطط الشام، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٠٩.

(٣) لا عجب أن نجد من يكتب وقفيته بطريقة يحاول فيها أن يحقق أكبر درجة من ضمان عدم ضياع الوثيقة ومن ثم اندثاره، وكانت الأعيان الموقوفة في مصر والمصرف في مكة المكرمة، وهذا ما فعله أحد الواقفين عندما كتب مصارف وقفه وتفاصيله على عمود من الرخام ووضعها ضمن أعمدة رواق المسجد الحرام في مكة المكرمة في عام (٨٦٣هـ/١٤٥٨م) وكانت موجودة حتى عام (١٤٣٥هـ/٢٠١٥م)، وقد نُقلت إلى متحف الحرميّن الشريفيّن حين البدء بالتوسعة السعودية الأخيرة عام ١٤٣٦هـ. انظر البحث المعنون: مرسوم لنائب جده جاني بك المملوكي الجركسي مؤرخ في ٨٦٣هـ، وهو منقوش بالحرم المكي الشريف، محمّد بن فهد الفعر، مجلة الدارة، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، العدد الرابع، السنة الثالثة والثلاثون، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م. وقد وقف عليها الباحث بنفسه وصورها في عام ١٤٢٩هـ. كما توجد بعض الصور منشورة في المرجع المذكور.

لوحة رخامية كبيرة، في مدخل الوقف أو داخل الوقف، لذا لا عجب أن يحرص من يريد إحداث فوضى في التعرف على الأوقاف أن يخفي الحجج الوقفية أو يدمرها أو يحرقها، وقد حدث هذا حقًا، فحين جلا الأتراك عن بلاد الشام إبان الحرب العالمية الأولى «أغاروا على سجلات الأوقاف ووثائقها وأوراقها الخطيرة ونقودها، كما أغاروا على وثائق أغلب الدواوين وسجلاتها، ونهبوا نقودها، وفي عدادها أموال اليتامى، وأمانات المصارف الزراعية، فأصيبت دواوين الأوقاف من أجل هذا بمصيبة عظيمة»[١].

٥) ذهاب البلدان وزوال العمران عن بعض المدن أو القرى، وأيًا كان سبب زوال تلك البلدان أو المدن إلا أنه استتبعه زوال ما بها من أوقاف، فكثير من «المدن القديمة غاصة بالجوامع فذهبت بذهاب عمرانها»[٢]، ومن المجزوم به أنه كان في كل قرية من قرى دمشق مسجد أو مساجد جامعة بحسب ضخامة القرية، وعشرات من هذه القرى خربت برمتها في القرون الأخيرة، فذهبت معها الجوامع، وكذلك ذهبت معها المدرس، والأربطة، والزوايا وما بها من مخطوطات وقفيّة، فهذا السبب وهو خراب القرى وبعض البلدات أدى إلى اندثار ما بها من مدارس، وأربطة وأية مظاهر وقفيّة أخرى.

٦) أورد (مُحَمَّد كرد عليّ) سببًا آخر من الأسباب المؤدية إلى اندثار الأوقاف وهو عدم وجود من يقوم بواجب العناية بها، فذكر أن هناك «مساجد دثرت لأنها ليس في جوارها من يتعهدها مثل جامع الأحمر في حي اليهود والبهائية في باب توما»[٣]. ويمكن سحب هذا المثال على الكثير من الأوقاف كالمدارس أو البيمارستانات التي لم يُعدُّ هناك من يستخدمها أو يستفد منها، ولذا اندثرت.

٧) ومن الأسباب التي توصل لها (مُحَمَّد كرد عليّ) التي تؤدي إلى اندثار الأوقاف هو كونها من عمل الأفراد حتى وإن كانوا من الملوك، أو الأمراء، أو الأغنياء، أو

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٥، ص١١٦.
(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٥٧.
(٣) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص٦٣.

العلماء، فهو يرى أن عمل الأفراد مهدد بالوهن في كل قرن، ضربها الدهر ضرباته، وعبث بجمالها وقطع أوصالها، ولو كانت من عمل الجماعات كمدارس الغرب في بيت المقدس نفسه، لكتب لها البقاء أكثر، ولكانت أحكم وأعظم[1]. فإنه «قلّ أن نرى جماعة اتفقوا على إقامة عمل من هذا القبيل يفتخر به اللهم إلا قليلًا من المساجد، ولو فعلوا لأمنت أعمال الجماعات من اعتداء المعتدين أكثر من عمل الأفراد، ولما استصفيت واستحل هدمها، ولا غيّر خططها ومعالمها من لا يخافون الله ولا عباده، ولجاءت ممثلة للعظمة الحقيقية في الأمة، على نحو ما قامت البِيَعُ والأديار والمدارس في الغرب، بإرشاد رجال الدين من كرادلة وأساقفة وقساوسة، فكانوا يجمعون قليلًا من صدقات الملوك والأغنياء والفرسان والشعب، فيجيء مجموعها عظيمًا يدار بأيدي هيئة منظمة على كل حال، ويختطون خطة لا يخرج عنها الخلف إلا قليلًا»[2]، وكأن (مُحَمَّد كرد عليّ) يرمى هنا إلى الوقف الجماعي الذي يشترك فيه مجموعة من أفراد المجتمع، غنيهم وفقيرهم.

٨) جراءة بعض الحكومات التي تعاقبت على بلاد الشام على الأوقاف، وتعطيل شروط واقفيها، أو الاستيلاء عليها وتحويلها إلى كيانات جديدة، كما حدث في تحويل بعض الأوقاف إلى كيانات حكومية بعيدة كل البعد عن مقاصد الواقفين، كتحويلها إلى سجن، أو مخفر شرطة أو محطة للكهرباء، ومثل هذا التصرفات الاعتدائية على بعض الأوقاف، وإن حدثت من بعض الأفراد، فلا يتصور قبولها من كيانات الدول الإسلامية «فلا مشروعية -بمنطق الفقه الإسلامي، أو القانون الوضعي- لإلغاء الدولة أوقافًا شَرَطَ الذين أوقفوها أن أعيانها موقوفة محرمة محبسة مؤبدة لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها، باقية على شروطها وجارية على سبلها، لا يوهنها تقادم السنين ولا مشروعية لنقض إرادة الذين أخرجوا أموالهم من ملكيتهم الخاصة إلى ملكية (أجل المالكين) ﷻ»[3].

(١) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١١٦.

(٢) خطط الشام، مرجع سابق، الجزء ٦، ص١٦٥.

(٣) دور الوقف في صياغة الحضارة الإسلامية، مُحَمَّد عمارة، جامع الأزهر، القاهرة، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م، ص١٧٧٨.

المراجع

١. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م/١٤٢٢هـ.
٢. الاندثار القسري للأوقاف: المظاهر ـ الأسباب ـ العلاج، عبدالله بن ناصر السدحان، المؤتمر الثالث للأوقاف، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
٣. الأوقاف المعمرة سماتها وعوامل استدامته: دراسة حالة لعدد من الأوقاف في المملكة العربية السعودية، ياسر بن صالح الصقير، مركز استثمار المستقبل، الرياض، ١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م.
٤. الأوقاف النبوية وأوقاف الخلفاء الراشدين، عبدالله بن مُحَمَّد الحجيلي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٣١هـ/٢٠١١م.
٥. أوقاف النساء في بلاد الشام وأثرها في الحياة العامة خلال العصر المملوكي، شيخة بنت مُحَمَّد الدوسري، مركز باحثات لدراسات المرأة، الرياض، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.
٦. الأوقاف فقها واقتصادًا، رفيق يونس المصري، دار المكتبي، دمشق، ١٤٢٠/٢٠٠٠.
٧. الأوقاف والسياسة في مصر، إبراهيم البيومي غانم، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م
٨. الأوقاف والمجتمع، عبدالله بن ناصر السدحان، مؤسسة ساعي لدراسات الأوقاف، الرياض، ١٤٣٩هـ/٢٠١٩م.
٩. الأوقاف والمصارف الوقفية في رحلة ابن بطوطة: قراءة نقدية، عبدالله بن ناصر السدحان، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت العدد ٤٣، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م.
١٠. تاريخ البيمارستانات في الإسلام، أحمد عيسى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ١٤٣٢هـ/٢٠١٢م.

١١. الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي، أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

١٢. جهود صلاح الدين الأيوبي في إحياء المذهب السنّي في مصر والشام (٥٦٤-٥٨٩هـ/ ١١٦٩-١١٧٢م)، محمد الرحيّل غرايبة، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات (السلسلة أ: العلوم الإنسانية والاجتماعية) جامعة مؤتة، الأردن مجلد ١٠، عدد ٣، ١٩٩٥م/١٤١٥م.

١٣. الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن الهجري، علي منصور نصر شهاب، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسالة١٦٩، الحولية الثانية والعشرون، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت، ٢٠٠١م/١٤٢١هـ.

١٤. الخدمات العامة في بغداد، عبدالحسين مهدي الرحيم، وزارة الثقافة، بغداد، ٢٠١٣م/١٤٣٣هـ.

١٥. خطط الشام، مُحَمَّد كرد علي، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٦. الدارس في تاريخ المدارس، عبدالقادر النعيمي الدمشقي، تحقيق: عمار مُحَمَّد النهار، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٤م/١٤٣٤هـ.

١٧. دور الوقف في صياغة الحضارة الإسلامية، مُحَمَّد عمارة، جامع الأزهر، القاهرة، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.

١٨. رحلة الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، شكيب أرسلان، حررها وقدم لها: أيمن حجازي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

١٩. السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، حياة ناصر الحجي، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٢٠. السلطان عبدالحميد الثاني: مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية، سيف الله آرباجي، دار النيل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م

٢١. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام، الرياض، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
٢٢. صحيح مسلم بشرح النووي، محيي الدين أبي زكريا النووي، دار الخير، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٢٣. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، دار السلام، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
٢٤. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
٢٥. كتمان الوقف واندثاره، محمّد قاسم الشوم، في المؤتمر الثاني للأوقاف بالمملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.
٢٦. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
٢٧. مآل المخطوطات النجدية بعد سقوط الدرعية، حمد بن عبدالله العنقري، مجلة الدارة، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، العدد الثاني، السنة ٣٢، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.
٢٨. مباني الأوقاف الإسلامية وأثرها في استدامة الأنسجة الحضرية للمدن التاريخية/ حالة دراسية: البلدة القديمة من مدينة نابلس، أمل شفيق مُحَمَّد العاصي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، نابلس، ٢٠١٠م/١٤٣٠هـ.
٢٩. مُحَمَّد كرد علي: المؤرخ البحّاثة والصحافي الأديب، إياد خالد الطباع، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٣٠. مدارس دمشق ودورها الثقافي من خلال وصف ابن بطوطة، حسن حلمي أبو الفضل، مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، العدد ٢٨، المجلد الثاني، ٢٠٢٠م/١٤٤١هـ.
٣١. المذكرات، مُحَمَّد كرد علي، مطبعة الترقي، دمشق، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.
٣٢. مرسوم لنائب جدة جاني بك المملوكي الجركسي مؤرخ في ٨٦٣ منقوش بالحرم المكي الشريف، محمّد بن فهد الفعر، مجلة الدارة، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، العدد ٤، السنة ٣٣، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م.

٣٣. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م.

٣٤. المغني، ابن قدامة، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي وعبدالفتاح محمد الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٣٥. مناهج البحث العلمي، مُحَمَّد سرحان علي المحمودي، مكتبة الوسطية، صنعاء، ١٤٤١هـ/٢٠١٩م.

٣٦. الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦هـ.

٣٧. الوقف الخيري وتميزه عن الوقف الأهلي، محمّد بن احمد الصالح، في (ندوة الوقف في الشريعة الإسلامية ومجالاته)، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

٣٨. وقف صبيح من أشيقر منذ عام ٧٤٧هـ، عبدالحليم بن عبدالعزيز مازي، مؤسسة ساعي لتطوير الأوقاف، الرياض، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.